رسـائـــل

أبــى الوليــد الــزواوى

دكتـــور

خالـــد الـــزواوى

مؤسسة حورس الدولية

الزواوى ، أبى الوليد

رسائل أبى الوليد الزواوى/ (جامع) خالد الزواوى الإسكندرية : مؤسسة حورس الدولية، ٢٠١١.

١٧٢ص؛ ٢٥ سم.

تدمك ٣ - ٣٨٠ - ٣٦٨- ٩٧٧ ـ ٩٧٨.

١- الأخلاق الإسلامية

أ- الزواوى، خالد

ب- العنوان

٢١٢

(جامع)

الإخراج الفنى وفصل الألـوان

وحدة التجهيزات الفنيـة بالمؤسسـة

إشراف عام: إدارة النشر بمؤسسة حورس الدوليـة

مديــر النشــر مصطفــى غنيــم

الترقيم الدولى I.S.B.N ٩٧٨ ـ ٩٧٧ -٣٦٨ - ٣٨٠ -٣

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٥٠٤٤

طبعة أولى ٢٠١١

مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع

الإسكندرية ١٤٤ شارع طيبة - سبورتنج ت: ٥٩٨ ٣٠ ٥٩ - فاكس: ١٧١ ٢٢ ٥٩

Email: Horus.alex@hotmail.com Mob.: 0123293638

Horus.alex2007@yahool.com

إهـــــداء

إلى كل من كان له قلب أو
ألقى السمع وهو شهيد

﴿بســم اللــه الرحمــن الرحيــم﴾

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ
قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾

(سورة ق ٣٧)

إن نحن أخذنا

من الوثنية احترام الأرض والأجداد
ومن ديانات الشرق الأقصى الروحانية
ومن اليهودية الرؤية والثبات
ومن المسيحية المحبة والتسامح
ومن الإسلام حرارة الإيمان
ومن العلمانية التفهم والانفتاح
ومن الأنسنة السعي للوحدة

غدونا أسعد البشر

تهنئـــــة

كتبت هذه الرسائل إلى أبنائى وأحفادى من أسرتى ومن القراء مشاعل تضىء لهم الطريق، وتفسح لهم مجالا من التزود بالخبرة، حتى يتبين لهم المستقيم من المعوج.

وقد استمديت عنوان هذه الرسائل من حفيدتى الصغيرة رقية التى لم يتجاوز عمرها العشرة شهور، حين استغربت ما حولها من أشياء، فنطقت أول مانطقت بصوت متقطع، وحروف مقطعة، استطعت أن أركب بعضها إلى بعض، فخرج الصوت بتركيبة (إيه ده..) وكأنها تتعجب من الأحوال فى دنياها الجديدة، أوكتساؤل لما يدور حولها، وهى لا تدرك ماهية الأشياء ولا طبيعتها، وليس لها عهد بالمواقف والأحداث والمشاهد، ولكنها كانت شاهدة على ما نراه نحن، وما يدور حولنا فى حياتنا اليومية.

وقد تناولت فى رسائلى جوانب كثيرة، وموضعات شتى من واقع المواقف والمشاهد عبر سنوات العمر التى قضيتها فى مشوارى، ومن خلال تجاربى الشخصية، ومن بنات أفكارى حول الظواهر التى مررت بها، والتى صادفتنى فى طريق حياتى، وهى إن كانت أفكاراً لاتتفق مع الكثيرين، إلا أنها معنى من المعانى التى راودتنى وشغلت تفكيرى، فتراءت لى هكذا، بعد أن غصت فى أعماق ما رأيت، وما علمت وقرأت وسمعت..

وهذه الأفكار ليست وجودية أو غير وجودية، ربما كانت فلسفة صادرة عن واقع ملموس كان له أثرة العميق فى مسيرتى.

وكل ما جاء فى هذه الرسائل أردت به التبصرة، والأخذ بعين الاعتبار لكل ماجاء فيها، والتفكر والإمعان فيه، علها تكون مرشدة لطريق مستقيم، أو هادية لفكر قويم، أو عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد..

وهى رسائل قصيرة متنوعة، تخرج منها أضواء مختلف ألوانها، يسهر عليها كلّ بما يستهويه من لون. ومعه عيون الليل وسط هذه الكلمات التى نسجت بها رسائلى التى كشفت عن سلوكيات الناس فى عالمنا..

وكلى يقين من أن القارىء سوف يجد صدى هذه الرسائل فى نفسه، وسيعود لضميره، ويكون له تعليق أو نقد على كل ما جاء فيها. وستكون بين مقبل عليها وبين رافض لها. وهذا أمر طبيعى وظاهرة صحية - فالمقبلون عليها يرون ما أراه فى إقناع - ربما مع بعض التحفظات اليسيرة - والرافضون لها يريدون تفسيراً أكثر، وتوضيحاً أعمق لصور هذه الأفكار.

وأنا فى الحالين مغتبط لنظرة الفريقين، فقد استطعت أن أترك أثرا ولو يسيرا فى كليهما.

وأرجوا أن تنال هذه الرسائل، وأفكارها من مختلف القراء استحسانا ورضا.

د. خالد الزواوى

المقدمة

فى مكتبتى كتابان فى الرسائل، أحدهما فى رسائل أبى العلاء المعرى، والآخر فى رسائل يحيى حقى لابنته..

أما رسائل أبى العلاء المعرى، فهى من الطراز الأول فى الفصاحة والبيان، والمنوال الذى ينسج عليه طلاب الفصاحة للوصول إلى صحة التعبير، والمثال الذى يتخذونه فى ابتغاء متانة السبك، وحسن التصوير. غير أن ندرة هذه الرسائل قد عز نيلها على الطلاب، والنفس تتشوق إلى اقتنائها وارتشاف صافى صهبائها..

وللمعرى من النظم لزوم مالا يلزم، وهو كبير يقع فى خمسة أجزاء أو ما يقاربها، وله سقط الزند، وشرحه بنفسه وسماه ضوء السقط.

واختصر ديوان أبى تمام، وديوان البحترى، وديوان المتنبى وأوصى أن يكتب على قبره هذا البيت:

هذا جناه أبى على   وما جنيت على أحد

إن رسائل أبى العلاء نوع آخر من فلسفة المعرى. إنها اللين فى الحث.. والخير فى تجنب الشر.. وسطر "سقط الزند" و "اللزوميات" لتبقيا شاهدا حيا على مدى إيمانه بفلسفته، وقدرته على العطاء، والإنجاب الفكرى.

شك المعرى فى كل شىء .. فى نفسه، فى الله .. فى الوجود .. كره

العالم وابتعد عنه، وتحاشى النـاس متجنبـاً الكراهيـة والأنانيـة.. كـره فـيهم الكذب والرياء .. فهم بلاؤه. وهم سبب تشاؤمه ونقمته.

إنـما لم يكفـر أبـو العـلاء بـالقلم ولا بالكلمـة، وسـمى "بـرهين المحبسين".

أما رسائل يحيى حقى، فقد كتبها لابنته نهى، التي أحبها حباً عميقـاً. وهو أديب مبدع صـاحب "قنـديل أم هاشـم" وهـو مـن مؤسـسى القـصة القصيرة فى مصر والعالم العربى. ورغم عمله فى السلك السياسى فقد كانت كتاباته الأدبية عذبة جميلة..

وهو فنان كبير صاحب فن عظيم يمتعك فنه وأدبه وجمـال أسـلوبه. تراه فتحس فيه البساطة والتقدمية، والإحترام والاستنارة دون أن يدعى، أو يزعم هو شيئا عن هذا. فسلوكه يشى بهذا ويدل عليه..

وعلى قلة ما أبدع يحيى حقى، فإن كـل آثـاره تبقـى مرشـحة للبقـاء والخلود فمجموعاته القصصية القصيرة، عـلى قلتهـا تبقـى مـا بقـى الأدب يقرأ.

وحين يؤرخ لتاريخ الأدب وكتابه خلال الفترة التى عاشها سيكتب عنه ضمن من أبدعوا فى أكثر من مجال. سوف يذكر بـين كتـاب المقالـة، كـما سوف يذكر بين كتاب النقد، وفى القصة القصيرة سيذكر أجمل ذكر.

ورسائله تتناول الجوانب الإنـسانية، ولهـذا أهميـة كبـيرة فى التـاريخ لشخصية واحد من كبار المبـدعين، فنـزداد معرفـة بـه، باعتبـار أن الجانـب الإنسانى قد يلقى الضوء على أدبه، ورؤياه الفنية. وهـو يمثـل كتابـا خاصـاً

للسلوكيات الحافلة بكل القيم والمعانى الإنسانية النبيلة، فضلاً عن أنه كان معلما لكل المبدعين، وأبا لكل الأدباء.

لقد كان نزيه الفكر، صافى القلب، بسيطاً ممتعا فى كتاباته وأحاديثه. صاحب روح ساخرة، ونكتة بارعة، وفكر مستنير..

وإذا كان يحيى حقى، قد غاب عنا بجسده، وكذلك المعرى، شيخ الفلاسفة، فإن أعمالهما لاتغيب، ويبقى أثرها فى نفوسنا لا يمحى أبداً..

وهناك كتاب ضخم بعنوان (رسائل أنيس منصور) من منشورات "نفرو" للنشر والتوزيع، أصدره الأديب إبراهيم عبد العزيز، وكتب له مقدمة شاملة بديعة، وهى رسائل تلقاها أنيس منصور من : طه حسين، وتوفيق الحكيم، والعقاد، وبيريز وبارليف وديان، والأديبة يائيل ديان، وكثير من الأدباء المصريين والأجانب..

والأستاذ ابراهيم عبد العزيز، صاحب موهبة فى التنظيم والضبط والربط، إلى جانب أمانته الشديدة، وله كتب عديدة توافرت فيها المتعة والروح الجادة والإستفاضة والثقة بالنفس وحسن تقدير القارىء.

وقد شمل الكتاب جوانب كثيرة، وموضوعات متعددة، وغاص فى أعماق ما قرأ وما سمع، وهو يستحق كل الاحترام والتقدير...

(١)

حفيدتى التى لم تفطم بعد لم تقو على المشى ولا الكلام وحركتها وئيدة بين هنا وهناك فى مكان واحد، تفرح بها أمها فرحاً شديداً لأنها جاءت مع طفلين ذكرين، فجمعت لها كل أنواع اللعب وحافظت عليها وزينتها بكل وسائل التزين فى ملابسها وفى أشيائها الصغرى، وقدمت لها كل ما كانت تحلم به فى طفولتها حتى أنها تحملها إلى (الكوافير) ليصفف شعرها الذى لم ينمو بعد .. هكذا تعيش الطفلة بين الترف ووسائل النعيم وكل ذلك إسقاط على ماضى الطفولة فى الزمن القديم..

كانت الطفلة تنظر حولها فى كل مكان، ونظراتها تطلع واستغراب لما تراه وهى تنتقل من جهة إلى أخرى، وسبحان الله لم تنطق فى أول تحرك للسانها بكلمة ماما أو بابا كما يرددها الأطفال فى بداية مراحل النطق عندهم، وهكذا ولكن كان أول ما ترجمت عنه أصواتها بكلمتين تحملان معنى الدهشة والاستغراب فكان ما تؤلفه أصواتها يكشف عن عبارة "إيه ده..؟"

هكذا كانت الصغيرة تردد بصوت ركبناه نحن ببعضه حتى يتبين المراد من نطقها بهاتين الكلمتين : "إيه ده" وعلمنا أنها ربما تدرك مالا ندركه نحن فيما يدور حولنا من أعاجيب تستدعى الدهشة والغرابة والاستغراب..

وتلك واحدة من الأعاجيب فقد كنا نتعامل بالبزنز والمليم والقرش والجنيه، نشترى طعامنا وشرابنا وملابسنا، ونقضى بها كل ما نحتاجه مما يستلزم حركة الحياة، ثم صار التعامل بالمائة جنيه والألف جنيه، وصرنا نستخدم بهذه الفئات مايعيننا على الاستمرار فى الحياة.

وبعد عقود أخرى جاء ذكر المليون وكنا لا ندرى عن المليون شيئا ونحن نتلقى علومنا فى المدارس ومنها العلوم الرياضية ولم نعرف كم صغرا نضع حتى نقرأ المليون، فالمائة صفران "٠٠"، والألف ثلاثة أصفار "٠٠٠"، وقد علمنا من ثم أن المليون ستة أصفار "٠٠٠٠٠٠" وأصبحت دروس الرياضيات فى المدارس تشير إلى هذا الرقم، وتقوم بتدريسه للطلاب..

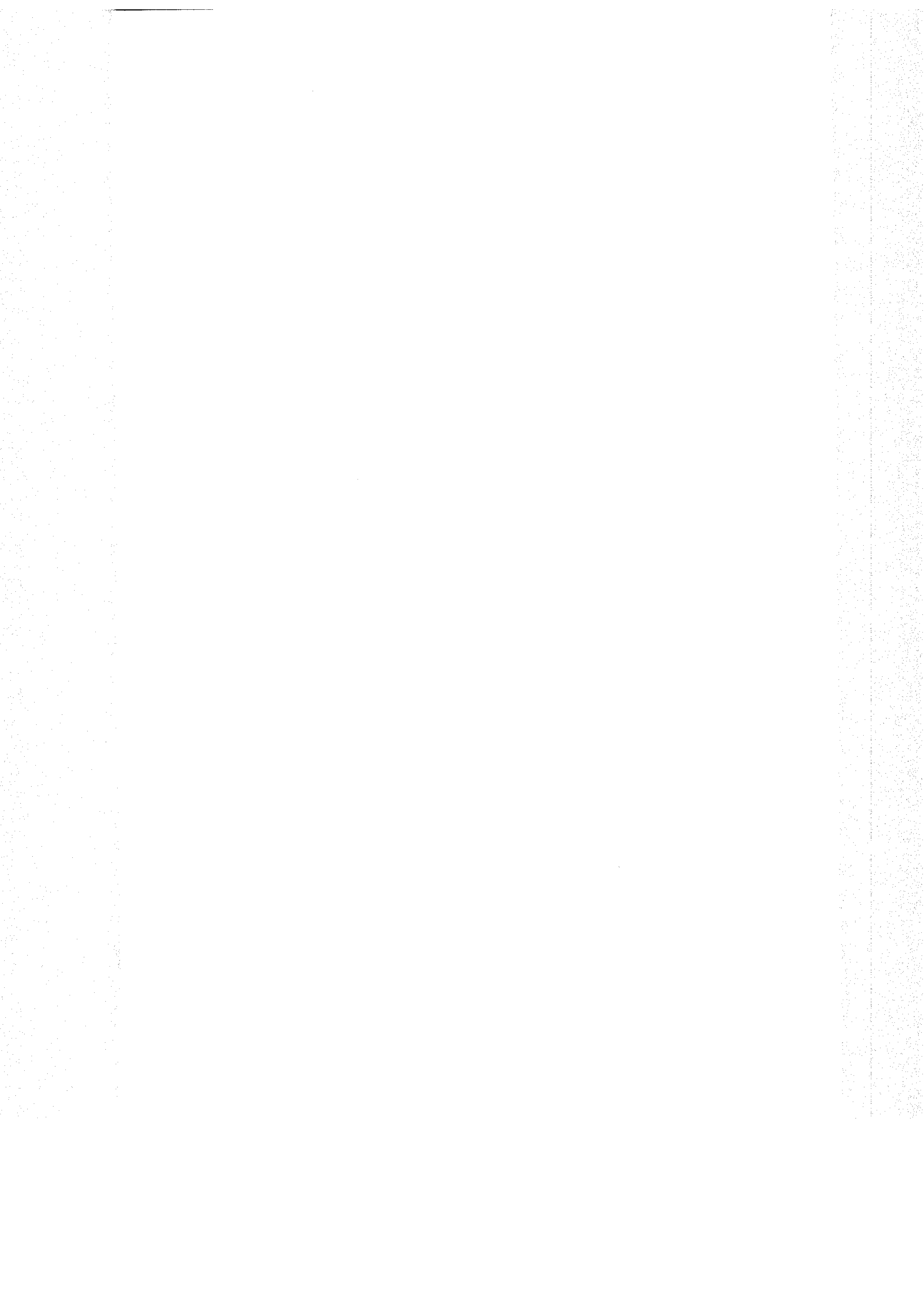
والآن صرنا نسمع ونقرأ عن المليار وأنه تسعه أصفار، وكذلك التريليون وهو اثنا عشر صفرا "٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠" و أصبحت الدول والميزانيات العامة تتعامل بهذه الأرقام، ولا ننسى ذكر الديشليون وهو خمسة عشر صفرا "٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠" والله أعلم ما تأتى به الأيام والسنون .. "إيه ده.. ؟" .

الناس يسرقون ويفتحون لأولادهم ولأحفادهم حسابات فى البنوك خوفاً من زلات الزمن، وكبوات الأيام ونسوا قول الله تعالى ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً﴾.

خـافوا وقـذف الله فى قلـوبهم الرعـب فراحـوا يتـسللون لـوإذا إلى المصارف والبنوك ويودعون فيها أموالاً مجهولة المـصدر حيـث تـضمن لمـن بعدهم البقاء فى رغد وعـيش هنـىء .. علمـوا الغيـب فـضمنوا الحيـاة لهـم ولغيرهم ومهدوا لهم الطريق بالمال كى يعصمهم من الحاجة والعوز والفقر، وما دروا ما تخبئه الأيام .. "إيه ده ..؟"

السرقة فى كل مكان ومن كل مكان والمساجد مـلأى بالمـصلين مـن هؤلاء الذين اكتالوا على الناس، وضاعفوا أموالهم وعملوا على زيادتها ومـا دروا أن جباههم وجنوبهم وظهورهم ستكوى بها لأنهـا مـن طريـق أعـوج ومن ثم لايجوز إنفاقها فى سبيل الله، فهى تحمى عليهم فى نـار جهـنم وبـئس المصير. "إيه ده ..؟".

الفساد من حولنا و الظلم فى عرفنا، وتغضب الطبيعة علينا ولا نعبـأ بحاضرنا أو مستقبلنا، إنما دنياى نفسى فإذا هلكت نفـسى فـلا عـاش أحـد "إيه ده ..؟" سبتمبر ٢٠١٠م.



(٢)

سمعت طفلا يبكى، ورأيت العبرات تنحدر على وجنتيه الورديتين، فكانت تلك اللآلئ الذائبة جمرات نار تكوينى.

ظل الطفل يبكى، ودلائل العجز واليأس بادية على محياه الوسيم، ظل يبكى بكاء متروك منفرد لايحبه فى الدنيا أحد.

الطفل الحبيب يبكى، فكيف أعيد التألق إلى عينيه ...؟

كيف أسمع فى ضحكته أصوات الملائكة مرة أخرى...؟

دنوت منه متوسلاً .. وضممته بذراعى إلى ، وأجلسته على ركبتى حيث لا يجلس سوى الأطفال الأبناء..

ورفعت عقارب شعره عن جبهته الطاهرة بيد ترتجف كأنها هى تلمس شيئاً مقدساً ـ ثم وضعت على تلك الجبهة شفتى ساكبا فى قلبه كل ما يحوم فى وجدانى من شفقة وانعطاف.

ترى من ذا ينبه الانعطاف والشفقة بمقدار ما يفعل الطفل الباكى..؟ صمت الطفل حائراً لأنه شعر بأن روحا تناجى روحه، صمت هنيهة، ثم عاد فحدق فىّ بعينين ملؤهما الحزن والتعنيف معا، وهكذا تحزن عيون الأطفال ، وهكذا تعنف أحداق الصغار..

حدق فىّ سائلاً عن أعز عزيز لديه، وقال بصوت هادىء كأصوات الحكماء "إيه ده ..؟".

صغيرك يناديك فلماذا لا تجيبين، يا أم الصغير؟ لست بالعليلة لأنى رأيتك منذ حين تميسين بقدك. أنت صحيحة الجسم، فلماذا لا تسرعين ...؟ ألا تحرقك دموع الطفل الذى لاترين؟ ألا يوجعك الشهيق الذى لاتسمعين؟

عودى من أحاديثك السخيفة فى التليفون، عودى واركعى أمام الصغير واستبيحيه عفوا. لقد خلقت امرأة، هكذا كان القدر، وكيفتك الطبيعة أما قبل أن تكونى شيئاً مذكورا..

تعالى، اسجدى أمام السرير، سرير الصغير، الذى لعبت بين ستائره طفلة، وحلمت به فتاة، وانتظرته زوجة، فما خجلت أن تهمليه أما .. ..

اسجدى أمام طفلك .. ولا تدعيه يبكى لئلا يملأ قلبه الحزن، حتى إذا شب رجلا، أو شبت فتاة، تحول الحزن كرها وصرامة..

اسجدى أمامه وناجيه .. إن دموع الأطفال لأشد إيلاما من دموع الرجال، ودموع النساء..

(٣)

وهب لى ربى غلاما سميته "وليد" أول من بشرت به، فأضيئت بـه الكائنات وتبسمت الدنيا التى تحولت بعده إلى لون آخر، لـه معنـى جديـد، وأصبح فى خاطرى وفى دمى قرة عين لى ولأمه، وأصبحت أبا بعد أن كنـت فردا، وسمعت كلمـه "بابـا" أول مـا سـمعتها مـن هـذا الـضيف العزيـز، وأخذت أتردد على الأماكن وهو فى معيتى، كنت فخوراً بـه، ألمح فى عيـون من تراه استحسانا وغبطة، وشعرت بعظمة الآيـة الكريمـة فى القـرآن التـى تقول ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ حقـاً زينـة تتـزين بهـا فى المحافـل والأماكن التى يلتقى فيها الناس ببعضهم البعض.

ما أسعد اليوم الذى مر بى، ومعى ابنى العزيز الذى أكتب إليـه الآن بعـد أن بلـغ أشـده واسـتوى، وصـار أسـتاذا فى المركـز القـومى للبحـوث بالقاهرة واستطاع أن يحقق لنفسه مجداً يشيد به كل من عرفه، أو تعامل معه، أو اشترك معه فى عمل، وأشارت الموسوعات العلمية باسمه كذلك وسـائل الاعلام المختلفة، فهو صاحب فكر علمـى عميـق، حقـق لـه نـصراً فى كـل المجـالات التـى خاضـها، وقـدم ابتكاراتـه لهـا، ومـن ثـم نـال التقـدير والإعجاب..

ابنى العزيز وليد .. هنيئاً لك هذا المجد العظيم، وعشت دوما تعمل فى همة ونشاط . وجد من أجل تحقيق سـعادة الآخـرين، ومـن أجـل رفعـة وطنك، الوطن الذى يرفعه أمثالك من هذا الجيل الذى تنتمى إليه.

وتمر السنون فتستقل بنفسك فى القاهرة، وتقيم بها بعيداً عنى حيث الإسكندرية مقامنا الأول، وأبارك لك زيجتك الميمونة، ثم أهنئك بمولودك محمد، وتأتلف الأسرة بهاء وسنى، وأعيش أنا وحيداً أرقب زياراتكم العزيزة، التى ما تكاد تبدأ حتى تنتهى، وكم أهنأ عندما أعزم السفر إليك فى مقرك بالمعادى، وتكون سعادتى برؤية حفيدى الغالى الذى أدعو له ولكم بالخير مع دبر كل صلاة .. اللهم آمين.

(٤)

ابنتى العزيزة رشأ ١٩٩٣/٩/٥

لم أكن أعرف قدرك إلا حين باعد بينى وبينك زواجك، فأصبحت تفارقين مكانك الذى درجت عليه وعشت فيه إلى حيث تؤسسين بيت الزوجية وأصبح لك الآن ابنان يوسف وياسين هما قرة عين لى ولك، ولا أكاد أراهما إلا من وقت لوقت بعيد.

لقد كنت لى لؤلؤة بحر عمرى ومشكاة حياتى، وسراجى الذى لا ينطفىء، وكنت نور كوكب فى سمائى يسعي أمامي، فكان الوجود أنت والخلود معك، وما حيلتى وقد صرت بلا جناح فاذكرينى كلما تلألأ نجم فى السماء، كلما غرد عصفور، وسرى جدول، وسبح غصن..

تذكرين يوم أن كنت أبشرك بزوج لك فترفضين، وفد عليك الكثيرون، بمختلف وظائفهم وأوساطهم وقدرهم، فلم يحظ أحد منهم برغبة، حتى كان القدر ففضلت رجلا يعمل فى أرض بعيدة، فى أمريكا.. وقطعت مسافة السفر إلى هناك التى تستغرق ثلاثين ساعة بين طيران وانتظار وانتقال من طائرة إلى أخرى، حتى تستقرى فى مكان الزوجية هناك. ويكون بيننا وبينك هذا البعد فى التلاقى، وتعيشين هناك غريبة ونعيش نحن هنا غرباء.

إن أمريكا أسطورة كان الناس يقصدونها للعمل والإقامة لما أشيع عن مواردها وعن دخلها وعن تمتع الأفراد فيها بنعيم العيش والمال الموفور، وما كان هذا منكم بواقع، فأراك فى شكوى من الإقامة من كل شىء.

صحيح هى بلاد نظيفة تعرف النظام، وتعرف قيمة العمل، ويقوم اقتصادها على العلم والعمل، ولكن لم لانكون نحن كذلك، لماذا لايكون العلم سبيلنا، والعمل رائدنا حتى لانشكو الحاجة ولا نحتاج إلى النزوح إلى بلدان غير بلادنا، وإلى أقوام غير أقوامنا، وإن كنا نؤيد تبادل البعثات والزيارات والرحلات، والسفر من أجل العلم، وتحقيق الذات، غير أننا نرفض الإقامة الدائمة، وترك الأرض التى نشأنا عليها وتربينا فيها، والبعد عن الأهل والأحباب والأصدقاء، وهذا لاتعوضه أموال أمريكا الزائفة ، والأسطورة التى كانت صورتها فى أذهان الدهماء..

أرجو أن ألقاك قبل رحيلى، وأن أطفىء لظى القلب بشهد رؤياك سلام ما يخفف معنى هم الفراق، وألم البعاد حفيدى يوسف وياسين أبقاهما الله لك وشرح بهما صدرك، ومتعك ومتعنا بهما، فهما جوهرتان مكنونتات، فيهما البراءة والنور والقبول، ولولاهما لكانت الحياة جحيما، ولعكف الإنسان على قدره، وهو على كل حال مستسلم لله، راض بما قسمه الله ، وقسمته العدل.

أبقاك الله ذخراً لأبنائك، وأبقاهم لك، وجعلهم نورا لك تمشين به، وتسعدين فى حياتك بمستقبلهم المشرق القادم.

(٥)

٢٢ يناير ٢٠٠١

كنت فى صمتك مرهف، وأنت فى آلامك المبرحة، تشكو من انحناءة الظهر، وثقل القدم، والتفاف الساق حتى عدت لم تقو على السير. وصبرت حتى نفد الصبر فلم تعد تتحمل سطو الألم رغم تماسكك، وقدرتك على مواجهة غيرك..

لقد أجمع الأطباء على إجراء عملية جراحية ، وبالسرعة الممكنة حتى نتحاشى مضاعفات المشكلة. وحدد الطبيب موعده الذى فوجئنا به، وأتممنا الإجراءات المطلوبة وتوجهنا إلى حيث أشار الطبيب، وأنتظرنا مقدمه فى الساعة الثانية عشر ظهرا، ونفض ملابسه، وارتدى الزى المعد لمثل ذلك، وتحركت عقارب الساعة قليلاً، وقطعنا الطريق إلى غرفة العمليات بخطى ثقيلة، تتبعها أبصار شاخصة، ونظرات حائرة فى صمت تسمع فيه تسبيح الجماد..

واختفى وراء الأنظار، واختفت كل الأشياء المتحركة وراودتنى كلمات السيدة مريم ﴿ فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً ﴾.

تمنيت هذه الساعة لو لم أكن حاضر المشهد إنها ساعة العسرة والضيق والكرب العظيم، واشتدت الأزمة ثم انفرجت، وأفاق الغالى، وهنأنا الطبيب بنجاح العملية وشكرناه، وانهمرت الدموع من كل المآقى انهار السماء المدرارة.

وعاد الجريح وسط الرحمات والتبريكات من كل القلوب، وقد تحقق أمر الله بلا زمن كما قال: وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر .. فقد أحاطت عناية الله هذه العملية، وكانت يد الله معهم كما شهد بذلك الأطباء واجمعوا على أن الله كان معهم وتم أمر الله فى غياب الأسباب ، والتف الجمع حوله يود ضمه، وتمنى كل واحد لو افتداه بنفسه..

وأحسست بالخطيئة يا بنى فأنا الذى جنيت عليك ولا ذنب لك فيما أصابك فقد جئت إلى الدنيا دون أن تستشر.

من مقال الأستاذ إبراهيم نافع (حقائق) المنشور بجريدة الأهـرام فى ٦/ ١١/ ١٩٩٩م ما يعبر عـن الإيـمان بـأن فى مـصر شـبابا نـابهين يخـدمون وطنهم بكل مايملكون فى ولاء تام لو تهيأ لهم المناخ الصالح لذلك..

وتأتى الرياح بما لا يشتهى السّـفنُ، فمنافذ الأمل تسد أمـام شـباب مـصر، وفى ذلـك محاولـة لـسد منافذ الأمـل أمـام مـستقبل مـصرأ فـبعض المسئولين يهمل دوره تجاه شباب هذا البلد من خلال مواقعهم، وهم بـذلك يسيرون عكس الاتجاه الذى حدده رئيسنا حسنى مبـارك الـذى يـؤمن بـأن مستقبل مصر مرهون بنوعية الأساليب التى تُعد بها الشباب، والـسكوليات التى نربى عليها أجيالنا الناشئة..

وهـذه رسـالة إلى ماحـدث فى قاعـة المحكمـة العـسكرية بلـوران بالإسكندرية لشاب من شباب مصر آل على نفسه إلا أن يكون خادما لمصر، ولم يرض بغيرها بديلا رغم فرص العمل التى أتيحت لـه فى الخـارج عقـب تخرجه فى جامعـة الإسـكندرية بكليـة الهندسـة، والتحـق كمهنـدس باتحـاد الإذاعة والتلفزيون المـصرى، وكـان مـن النـابهين فى دراسـته الجامعيـة وفى الدراسات العليا..

ولبـى نـداء الـوطن فـأدى الخدمـة العـسكرية بـشرف وأمانـة، ثـم استدعى بعد الانتهاء من الخدمـة فلبـى، واسـتدعى مـرة أخـرى بعـد المـرة الأولى فتصادف مرضه بالعمود الفقرى، وهو يختلف على كثير مـن الأطبـاء

فى الإسكندرية والقاهرة، وعلى الزائرين من الخارج، وقرر الجميع إجراء العملية له بعد أن كان طريح الفراش، وقدم للمحكمة التقارير والأشعات التى تثبت مرضه فى هذه الفترة.. علماً بأنه طلب فى استدعائه الأول عرضه على القومسيون الطبى الذى أمر بإعفائه وراحته إلى أن تنتهى مدة الاستدعاء.

ووسط هذا الجو المفعم بالاضطراب والقلق والترقب والخوف، وبين أنفاس الحاضرين من الجناة وغيرهم ممن وضعوا فى قفص الإتهام..

خيم الصمت على القاعة لينبعث صوت العدل، وتسرد الأحكام ومن بينها حكم العدل على الشاب المتهم، صاحب قضية التخلف عن الاستدعاء: بالسجن لمدة سنة مع الشغل تبدأ من تاريخ المحكمة، ولمدة ثلاث سنوات، وأمرت المحكمة بإيقاف التنفيذ مع غرامة مالية قدرها ٣٠٠ جنيه.

وخرج الشاب غائرا لايدرى شيئاً حوله، غائراً سابحاً فى جو من الحيرة والشك، فأى مستقبل ينشده الشباب، أو تنشده مصر مع تلك الأساليب، لقد ضاعت الآمال، وتوقفت المشاعر إزاء كل تقدم، وأنى يكون الطموح والتفاؤل، مع الصدمة فى أول خطوة على طريق المستقبل.

أبمثل هذا يكون الحكم الذى يعتبر وصمة على الجبين حتى النهاية ، صوت هزيمة للمستقبل، لاصوت نصرة للعدل..

(٧)

فى ظهيرة يوم جاءنى ورأسه بين يديه، ذراعه اليمنى تحتضن جنباً هامدا، جاء متسربلا بدم حادثة، وقعت أثناء عمله فى محطات تقوية الإذاعة، بأبيس بالإسكندرية.

رباه ماذا هناك فى الأفق البعيد، ولدي بين يدى وأنا حائر طريد، أين ضحكه وحديثه الشجى، أراه قد غشاها الأسى والأنين.

خذ بيدى يارب فعبدك لايطيق، وها أنا أمام خطب جسيم، وماهى إلا لحظات وكنا أمام الطبيب، لحظات كأنها الدهر، مرت ثقيلة كالجبال، وقام الطبيب بواجبه الجراحى حتى تماثل للوقوف والسير، وتمالك نفسه.

وعدنا نجتر الأيام الخوالى، ونحسب كم يبقى من العمر، ولكن هيهات أن تعود بسمات الشفاة، وأفراح القلوب، وكل شىء يستمر وتجرى حركة الحياه، ومافائدة البكاء وقد صار الحدث مساره الذى شاء به الله .. وما عساك تفعل أمام عثرات الزمن، ومخاطر الأيام. لاشىء سوى الاستسلام لقضاء ما له من رادع، مشيئة الله ولا راد لمشيئته، فماذا عسانا نفعل ونحن لاتزال على الطريق، وأمامنا مشوار طويل؟

وكنا نكتم ما يعترينا من جراح، ونخفى ما يسوارنا من أحزان، ويدرك ابنى هذا الذى نحن فيه، فيبين صوته عن كلمات المواساة، لا تجزع

أبى فأقدارنا مكتوبة علينا، وما نحن منها بمنأى إلا أن تكون، وأنت أماه كنكفى دمعك الثمين، فما زلت بين الخلائق أعيش.

ادعوا لى فدعاؤكما هو السبيل إلى النجاة، وإلى الفوز فى الدنيا والأخرة.

(٨)

ابنى مهاب العزيز ١٠/ ١١/ ١٩٩٣

ماقاله البلغاء والحكماء والفلاسفة والمفكرون والعلماء وأباطرة علم النفس والأخلاق والمنطق والتربية عن الابن هو فوق ذلك.

فأنت عندى لست كما قال هؤلاء جميعا، وقد تعلمت منك تفسير ما تردد عن ماهية الروح، فالروح أنت .. وأنا أعيش الآن بدونها، فهل تعود؟ أتدرى كيف تكون الحياة وأنت بعيد ؟ أتدرى عندما تغيب الشمس ويسدل ستار الظلام. ظلمة من فوقها ظلمة، تتفرق فيها النفس وتتجزأ كل جزء فى غير استقامة، وكيف تستقيم نفس بلا روح.

غدا تعود، وكل شىء يعود ..وعدت تملأ الدنيا حبورا وبهاء وسنى، وعادت معك الفرحة والبهجة، مع كل خطوة من خطواتك تزهو جنبات الأرض، وسقيتها ماء برك وكرمك فاهتزت وربت وأخرجت من كل زوج بهيج.

عدت بطيبك، والطيب يزداد طيبا أن يكون بك

بك الطيب وإن لم تتطيب، كل شىء إذن حضر عندما تكون بيننا، فبدونك حياة بلا روح، وعمر بلا أنيس ، ولكنك فى مكانك الآن تسعد بنيك وهم زينتك فى مقامك فليبقهم الله لك ، ولنفخر بهم على مر الأيام، وليجعلك ذخراً لهم وأمنا وأمانا لعيشهم فى رحابك.

سوف نحيا على الذكرى، ذكرى أيام خلت نسترجع فيها أيام الصبا والشباب، والأنس والمتعة، ستكون لنا عيدا فى تذكرنا لهذه الأزمنة، زمن ولى وراح، وزمن يجيء بعد عناء، ثم تختتم الأزمنة نفسها بأن يصبح كل فى طريق.

أذكرك غلاما، واذكرك شابا يافعا، وأذكرك فى حلك وترحالك، ولن أنسى رحلتى معك فى أرض الحجاز الأرض التى أوصى بها الله الناس لزيارتها لمن استطاع وأتمنى العمرة معك ومع ولديك، فكانت خاتمة المطاف، وبها وسعت السعادة كل شيء، وأصبحت صورا تتراءى لنا كلما خلونا لأنفسنا ورحنا مع الماضى الجميل، ماض من العمر ، أحسبه لن يضيع.

وقد ازدانت رحلتنا إلى العمرة بولديك أحمد وعبد الرحمن، وهما فى سن مبكرة لايتجاوز أحمد الست سنوات، وعبد الرحمن الأربع سنوات، لكنهما كانا رجلين، شاهدتهما فى طوافهما حول الكعبة، وسعيهما بين الصفا والمروة، ومصاحبتنا معا فى الصلوات، وفى رحلات المزارات. لم يبد أحد منهما ضيقاً أو تعبا، ولكنهما كانا روحين ترفرفان حولنا، حتى انتهت مناسكنا فى دعاء وتضرع إلى الله أن يعيد مثل هذه الرحلة إلى الأرض المقدسة ومعنا الحفيدان العزيزان ، ليبارك الله لك فى ذريتك، ويمتعك بهم ، وتظل عونا لكل ذى حاجة.

(٩)

لم يكن حمل السيدة مريم حملا طبيعيا، فلم يمسسها بشر، ولم تكن فترة الحمل طبيعية أيضاً، فقد خرجت من بيت أهلها فتاة صغيرة عذراء، ولم تكن تحيض، كما قال أحد السلف الصالح[فقد طهرها الله تعالى من الحيض ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ﴾ ومادام الحمل كان معجزة، فيجب أن يتم فى غياب الأسباب، ولو تحققت المعجزة بواسطة أسباب طبيعية لبطلت، ولما كانت معجزة.

وأجمع العلماء على أن مريم – عليها السلام – خرجت من بيت أهلها فتاة عذراء – ابنة خمسة عشرة عاما – وعادت لهم فى نفس اليوم، وهى تحمل طفلها على كتفها.

وقال ابن عباس – رضى الله عنهما -: (ماهو إلا أن حملت فوضعته) وهذا تفسير لقول الله تعالى ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً (22) فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً (23)فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴾ ثلاثة أفعال كل منها مسبوق بفاء العطف التى تدل على الترتيب والتعقيب للفعل.

وكان حمل السيدة مريم، من أمر الله عز وجل، كما قال عز من قائل: (وكان أمرا مقضيا). ويتحقق أمر الله بلا سبب، وبلا زمن، كما قال تعالى ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾

وهل كانت عملية الولادة طبيعية كما تلد أى حامل طفلها؟

إنها كانت ولادة طبيعية، وعانت منها السيدة مريم آلام المخاض، إلا أنها كانت ولادة أحاطت بها ملابسات عجيبة.

فعندما أجاءها المخاض أى ألجأها المخاض إلى جذع النخلة لتستند إليها أثناء الولادة، وكانت منهكة القوى، وفى حيرة بالغة، وألم بدنى ونفسى كبيرين.

لقد كان موقف السيدة مريم، بجانب النخلة فى موقعها هذا، واستنادها إليها رمزاً لو قوفها بجانب الكلمة الطيبة، واستنادها إلى الحق.

ونحن نريد من خلال هذه المعجزة الكبرى، الهينة على الله، أن نقتدى بالسيدة مريم، نقتدى بإمرأة وقفت بجانب الحق، أو أنها أرادت أن تنادى بالوقوف إلى جانب الحق، الحق الذى نفتقده فى أيام التقدم فى العلوم وفى التقنيات الحديثة، الحق الذى أصبح الناس لايعرفون معناه، فكان الكذب هو وسيلتهم فى كل أغراض الحياه، حتى أنك لاتجد واحدا صادقاً فيما يقول أو فيما يفعل، وأصبحت المصالح التى توجه الأفراد، ثم وقوف السيدة مريم بجانب الكلمة الطيبة، ذلك المعنى الذى تدل عليه الآية الكريمة، ويدل عليه مشهد الولادة، وما أحوجنا إلى الوقوف بجانب الكلمة الطيبة، وأن فى هذه الكلمة مفاتيح الفوز والنصر.

من أجل الحق والعدل والكلمة الطيبة، والقول الصادق، كانت رسائلى التى تكشف عن السلوكيات وأنماطها ، وتكشف عن التربية التى يتربى عليها الإنسان.

ولعل فى ذلك ضوءا يأخذنا إلى العمل الصادق، وإلى حيث تكون السلوكيات الصحيحة المستمدة من القرآن، فالخلق القويم هو خلق القرآن، وأن السلوك يدل على التربية، ويدل على اتقان الناس لثوابت دياناتهم.

كلمـــات

- آمين : كلمة حبشية بمعنى استجب.
- الأذن وسيلة عبور للقلب.
- الفيمتو: وحدة قياس زمنى (واحد على مليون من البليون من الثانية).
- الابتلاء ليس مذموماً فى ذاته ولكن فى نهايته.
- العتاب بين حبيبين يفسده من يحضره ولوكان حبيبا.
- الموت سهم أرسل إليك وعمرك بقدر سفره إليك.
- فه عن الحكم جار وجاد عن القصد.
- أما بعد: أول من قالها قس بن ساعدة
- زيادة السرعة تقلل الزمن، وبطء السرعة يزيد الزمن.
- عمر الكون $\frac{1}{2}$ ٤ مليار سنة، وعمر الخليقة مليار سنة على الأرض.
- أول مؤمن لله هو الله.
- لاتأتى الأحزان فرادى.

- أعلى القمم فى لحظات الحياة هى الموت.
- البجع لايموت إلا وهو يشدو بالغناء.
- أوطان الرجال تختلف بسعيهم.
- الجزاء من جنس العمل.
- لك العتبى حتى ترضى.
- كيف أعاودك وهذا أثر فأسك.
- العصا من العصية.
- أن ترد الماء بماء أكيس.
- ما به البقاء ، به الفناء .. وما به الوجود، به العدم.
- رووا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم.

(١٠)

نشأت يتيما وأبى موجود، فقد طوعت له نفسه أن يتزوج مرة ثانية بعد أن أنجب من الأبناء عشرة أنا أصغرهم، وله سطته ووجاهته وقيمته الاجتماعية، ولا ينقصه شيء الزوجة والمال والعمل والبنون كل ذلك متاح له، ويمتلك بيتا خاصاً ، ويعامل معاملة الأسياد فى عهده ترك كل ذلك وراح لمرأة أخرى ليست تزيد شيئاً عن الأولى فالنساء كلهن سواء، إنما هى النزوة الكاذبة، فالرجل عنده المرأة الحسناء وينظر إلى ماسواها وغيره ينظر إليها وقد يكون هو الآخر متزوجاً .. لست أدرى ما الذى يدفع الرجل إلى امرأة أخرى، أو لايقنع بما أحسن الله إليه، إلا إذا كانت هناك بعض الموجبات التى تحتم على كليهما أن يترك الآخر أو أن يرتبط أحدهما بغيره أو بغيرها .. أما وقد وهبه الله الاستطاعة فتزوج وامتلك ووهبه المال والبنين فما حاجته إلى أخرى، أو فما حاجتها هى إلى آخر إن حدث العكس .. وتجرى الأمور على غير مايشتهى السفن، وتتحمل الأبناء وزر آبائهم وأمهاتهم. . قضية حدثت وتحدث فى كل وقت وحين ولا أدرى لها مخرجاً..

وهكذا نشأت بعيدا عن طيف الأبوة فى أسرة متوسطة كان قوامها الأم الصبورة المجاهدة، التى وهبت نفسها لتربية أبنائها العشرة، ومضت السفينة تمخر عباب الماء، فتعلو مرة وتنخفض أخرى .. ترتفع وتهبط وتقاوم أحيانا الأمواج وقد تكون كالجبال، ثم تهدأ العاصفة، وتعاود السفينة سيرها إلى أن استوت على الشاطيء فنزل ركابها يوزعون، كل

يبحث عما يقيم به حياته، وسط هذا العالم العجيب الملىء بالمتناقضات، منهم من ربح، ومنهم من خسر، وإذا الدنيا كما نعرفها وإذا كل فى طريق .. وبقيت مع أمى وأختى.

كنت أراه عندما تزوج أبى ، فلم أعد أراه، ولم يعد يرانى، وكنت أسأل عنه فيقال إلى إنه مسافر وسيعود قريباً .. والتحقت بمدرسة الأقباط الإبتدائية بدمنهور وفى الصباح – وكنا نذهب إلى المدرسة مترجلين – فدائما تكون المدرسة قريبة من البيت.

وإذا بصوت ينادينى باسمى، لم أتعود هذا الصوت، والتفت فإذا بشخص وسيم، فى زى أنيق، فيه مهابة وشموخ، وجهه لا يعرف الابتسامة، بيده منشة، ويجلس فى (موتوسيكل) فى مكان مخصص وبجواره سائق الموتوسيكل، وبالطبع كان متوجها إلى عمله فى الصباح.

قال: ألا تعرفنى ؟ صباح الخير، فرددت عليه الصباح وأجبته بصوت منخفض لا أتريد شيئاً ؟ سكت برهة، ثم أمر السائق أن ينطلق، وتابعت طريقى إلى المدرسة وقصصت ما شاهدته على أمى، فقالت : صفه لى .. فوصفته لها، فتبسمت ضاحكة .. وقالت : إنه أبوك راح يسأل عنك، وفرحت أول الأمر وقلت لها: إذن هو عاد من سفره، فلماذا قابلنى فى الطريق ولم يعد إلينا قالت بالنبأ العظيم فعدت أدراجى مع الريح، وتمنيت لو ألقاه ثانية، ولكن كان هذا اللقاء بعد أن تخرجت فى الجامعة، ورحت أبحث عنه وأمد إليه يدي والتقينا لقاء الغرباء.

(١١)

نشأت فى أسرة متوسطة، تزوج أبى بامرأة أخرى، فقامت أمى بالرعاية والعناية على الأسرة التى تركها القائد، وأخذت تدبر الأمور لى ولأختى لتستمر المسيرة، وتشعب إخوتى الباقين فى شعاب الأرض، ولم تقو أمى على أعباء المعيشة فأحسست بها وأنا طفل صغير، وكانت تذهب وتجىء وكأنها تبحث عن شىء تحتاجه، فعرفت أنها تشكو الضيق – وعدم القدرة على الإنفاق، وهى التى لاتمتلك شيئا، وطلبت منى أكتب خطاباً لأبى أستأذنه فيه بأن يمدنا ببعض النقود نستكمل بها مستلزماتنا فثلاثة جنيهات لاتكفى لمصروف الشهر، ونحتاج لجنيه او اثنين زيادة وأدركت الأمر وكتبت خطاباً إلى ذالك الربان وأرسلته على عنوانه الذى عرفته كى يقدر ما نحن عليه من الحاجة من أجل العيش البسيط واستشهدت فى خطابى بآيه من القرآن الكريم تقول ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ هكذا خيل لى أن تفسير هذه الآيه تنطبق علينا وكانت الرواتب فى هذه الفتره ضعيفة لكن الحياة سهلة غير معقده فأنت تستطيع أن تنفق حوالى ثلاث أو أربع جنيهات فى الشهر وتكون بذلك قد استوفيت كل شئ لكن سير التعليم والداراسه فى المدارس قد يحتاج لشئ من الزيادة لتلبية الطلبات الجديدة. وما أن وصل الخطاب إلى المعنى بالأمر ، وقرأ ما فيه حتى قامت الدنيا وقعدت، واعتبر أن ما حدث يشكل تطاولا عليه، وربما يشعر أحد بما فى الخطاب فتهتز صورته للآخرين، وما هى إلا أيام قليلة حتى اجتمعت الأسرة، وأعلن أخى الأكبر أن شيئاً ما قد حدث وهو ما يعكر صفو الجميع

ويقلق راحتهم، وراح يعنف الحدث، وأن الذى دفع بك إلى مثل ذلك، لايجب أن يتكرر وسنعمل على استيفاء المطلوب بحيث لانحتاج من أحد مساعدة.. وقد كان وسارت السفينة تمخر عباب الماء حتى استوت على الشاطىء، ونزل ركابها وأقاموا لأنفسهم مستقرا يواصلون فيه حياتهم دون ضجرأ وملل.

كانت عيادته فى باب اللوق بالقاهرة، وهو مكان وسط المدينة ومقصد الناس من كل مكان ففيه كل مايحتاجه الإنسان، والناس تقصد العيادة لإجراء تحليلات فى الدم، وكان الدكتور صاحب العيادة من المعروفين فى هذا التخصص والبارعين فى عمل النتائج التى يحتاجها المريض، وكان من عائلة عريقة تسكن الريف، وهو مقيم فى المدينة وعرف عنه من أصحاب الثراء الذين ينفقون من أموالهم فى سبيل، القافع والمعتر، وحكى عنه حكايات إنسانية شجعتنى على الذهاب إليه ، ومحاولة الاستفادة منه خاصة وأنه من المعارف القريبة، بل يكاد تربطنا به أواصر النسب، وقلت من باب صلة الرحم، أسأل عنه واستأذنه فيما أحتاج إليه، وقد كانت ظروف الحياة فى هذا الوقت قاسية للغاية، وكنت طالبا فى الجامعة، وانتقلت من قريتى إلى القاهرة فاختلف الوضع المعيش والمال كان عزيزا فى هذه الفتره، واحتياجات الجامعة كثيرة وليس عندى مايسد حاجاتي الدراسية والمعيشية فتحاملت على نفسى وقطعت الطريق من جامعة القاهرة حيث كنت أقيم فى المدينة الجامعية إلى ميدان التحرير بالقاهرة، ومن ثم باب اللوق، إلى العيادة، وكنت قد سألت عن مكانها من قبل، وطرقت الباب واستأذنت فأذن لى، وطلبت مقابلة الدكتور، وبعد فترة من الوقت سمح لى بمقابلته فألقيت عليه التحية وحيانى بمثلها، وقدمت له نفسى وأننى ابن محمد أفندى الذى يعرفه وتربطه به صلة قرابة ونسب ، فهو زوج أخته بعد أن ترك أمى، واستمع لى الدكتور فى صمت وأنا أطلب منه مساعدة قيمتها

عشرة جنيهات تعيننى على قضاء حوائجى فى الجامعة.. وكان هذا المبلغ يشكل عبئا على من لا يمتلكه وما دفعنى إلى ذلك إلا تأكدى من أن الدكتور من أهل الخير وممن يساعدون الشباب على مواصلة حياتهم وطريقهم، وأومأ برأسه قليلا ثم قال إنه سيفكر فى الأمر أو يبحث الموضوع، وطلب منى أن أمر عليه فى وقت آخر حتى يكون قد استوثق من هذا الموقف، وانصرفت وما كنت أتصور أن يحدث مثل هذا التصرف ولمت نفسى، وخرجت لا أدرى شيئاً حولى حتى عدت أدراجى، وجعلت أفكر فى هذا الموقف وماذا سينتج عنه، وقد كان ماكنت أخشاه، فقد أتصل الدكتور بأبى وأعلمه بالحدث، وما كنت على اتصال بأبى الذى اتصل بأخى الذى يتولى الإنفاق علىّ وشرح له ما سمعه وأمره أن يتخذ موقفا حيال هذا الذى حدث، وجاءنى أخى فى ثورة عارمة كيف يحدث ذلك؟ وما الذى دفعك لمثل هذا العمل، وهل نحن قصرنا عنك فى شىء، إلى غير ذلك من التعنيف والتوعد، وتحملت كل هذا التيار الذى لم أحسب له حسابا حتى كان ما كان.. فلا الدكتور ساعدنى رغم ثرائه، ولا الأهل ساعدونى على أن أجتاز هذه المحنة، وأخذت أتساءل ماذا لو تراحم الناس فيما بينهم؟ وماذا لو أعطى غنيهم فقيرهم؟ وماذا لو أنصف أهل الغنى أهل الفقر حتى يصبحوا فى حق الحياة سواء .

ويموت الدكتور ويخلف وراءه ثراء عريضا يسرق منه كله، فليس له ولد ولا بنت ، اللهم زوجته التى استطاعت بطرقها أن تحصل على كل ثروته لنفسها، وهكذا الدنيا.

(١٣)

بعد أن تخرجت فى جامعة القاهرة عام ١٩٥٨ كانت طموحاتى تكملة مشوارى العلمى، والالتحاق بالدراسات العليا، والحصول على درجة الماجستير والدكتوراه، وأعاقتنى بعض العوائق، حيث عزمت على التقديم لتمهيدى ماجستير، طلبت لأداء الخدمة العسكرية فلبيت الدعوة، ولم يتح لى أثناءها أن أتفرغ للدراسة، وبعد انقضاء فترة الخدمة ، شاء الحظ أن أسافر فى دولة الكويت ويعلم الذين عملوا فى الكويت أنه ليس من السهل الحصول على إجازة لمواصلة دراستهم أو يصعب على العاملين بها الانقطاع عن العمل لمزاولة شيء آخر، فقد كان المتعارف عليه أن لا مجال فى هذا الطريق وعلى ذلك لم يتيسر لى تحقيق رغبتى، ولكنى استطعت أثناء عملى أن أحصل على الدبلومة العامة فى التربية من جامعة الكويت التى تم إنشاؤها خلال فترة عملنا هناك وكان ذلك، عام ١٩٨٠ ومرت السنون وتقدم العمر لكن الرغبة مازالت تلح علىّ، حاول ت أثناء مدة عملى فى الكويت أن ألتحق بالدراسات العليا فى مصر، فكانت القوانين تحول دون ذلك إلى أن قدمت استقالتى عام ١٩٨١ من الكويت وعدت إلى مصر، وعملت بها فى نفس المجال، وبدأت أنفذ ما لم استطع عليه من قبل فوجدت من الطبيعى أن أستكمل مشوار التربية التى بدأتها فى جامعة الكويت، فتقدمت للدبلوم الخاصة فى التربية وحصلت عليها من جامعة الأسكندرية عام ١٩٨١ ، ثم أشير على بدبلومة أخرى من جامعة عين شمس فحصلت عليها عام ١٩٨٣م وكنت أعمل فى الإسكندرية ثم خطر لى أن أتقدم لجامعة

الإسكندرية لاجتياز السنة التمهيدية للمجاستير فى اللغة العربية ، ورفضت أوراقى فى بادىء الأمر، لأنى من جامعة القاهرة، ولا يحق لمن تخرج فى جامعة القاهرة التقديم لجامعة الأسكندرية، واستمرت المحاولات لمدة عامين حتى تغيرت المقاعد فى الجامعة وجاء من يوافق على تقديم الأوراق من جامعة القاهرة لجامعة الإسكندرية، وتقدمت واجتزت السنة التمهيدية ١٩٨٦ كل ذلك والعمر يتقدم حتى سجلت لدرجة الماجستير مع الاستاذ الدكتور سعيد منصور أستاذ الأدب بالجامعة، وظل العمل معه من عام ١٩٨٦ حتى نوقشت الرسالة وحصلت على درجة الماجستير عام ١٩٩٢ من كلية الآداب جامعة الإسكندرية وكان الأستاذ الدكتور محمد زكى العشماوى أستاذ الأدب والنقد بالجامعة رئيس اللجنة المشكلة والأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن أستاذ الأدب والنقد بجامعة عين شمس عضو اللجنة، وأعلن رئيس اللجنة الحكم بصلاحية الرسالة، والحصول على درجة الماجستير بتقدير ممتاز.

كان عمرى فى تلك الأثناء ثمان وخمسين عاما، لم تفتر عزيمتى، ولم أيأس من الطموح، فواصلت المسيرة ولم أيأس وسجلت لدرجة الدكتوراه مع الأستاذ ابراهيم عبد الرحمن مشرفا من جامعة عين شمس، ونوقشت الرسالة وكان الأستاذ الدكتور محمد زكى العشماوى هو أيضاً رئيس اللجنة ومعه الأستاذ الدكتور محمد عبد المطلب عضوا ، وأعلنت النتيجة باجتياز درجة الدكتوراه ونيلها بمرتبة الشرف الأولى وكان هذا عام ١٩٩٦ وعمرى آنذاك آثنان وستون عاماً، وتحقق الحلم فى هذا العمر، ولم أتخاذل أو أتراجع بل كنت حريصاً على أن أحرز نصرا من كل خطوة أخطوها فى سبيل العلم

الذى ليس له وقت ولا يحد بعمر، فهو يطلب فى كل وقت، ويطلب فى كل مكان ويعلن فى وضوح أنه لا أحد فوق العلم ، بل الكل يطلبه ويطلب الاستزادة منه ولسان حاله يقول: وقل ربى زدنى علما.

وهكذا تفتحت لى كل الأبواب، رغم تقدم العمر، واستطعت أن أنتج من الأعمال العلمية ما يقارب الخمسة وعشرين كتابا، وحصلت على كثير من الجوائز العينية والمادية، إلى جانب شهادات التقدير، ولا يزال العمل مستمرا.

أقول ذلك لأبنائى لايأس مع الحياة ولاحياة مع اليأس، ولا خوف من المستقبل، وأنت تعمل بجد وإتقان، فالطريق أمامك، والأبواب لم توصد فى وجهك، مع العزيمة والإرادة فى كل ماتقدم عليه ، وسيكون الفوز لك لامحالة.

إن فى ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾

(١٤)

مـع موعـد احتفـال جامعتنـا العريقـة الجامعـة المصرية – جامعـة القاهرة – بمولدها فى الحادى والعشرين مـن شـهر ديـسمبر عـام ٢٠٠٨م، ذلك اليوم المهم فى تاريخ مـصر والتعليـم فى مـصر، يطيـب لى وقـد تلقيت تعليمـى بجامعـة القـاهرة أن أسـهم بالمشاركة فى احتفالهـا بالعيـد المئـوى بذكرياتى بعـد أن التحقـت بهـا عـام ١٩٥٤م فى إطـار الإعـداد التمهيـدى للاحتفال بالمئوية الأولى لجامعة القاهرة.

الدور المهم الذى لعبتـه جامعـة القـاهرة كمؤسـسة تعليميـة بحثيـة ثقافية وتنويرية قادت وأسهمت فى إنماء وتطوير المجتمع المصرى، وسيكون الارتباط والولاء الذى ينشأ بـين الجامعـة ومجتمعهـا الـداخلى (الطـلاب – الأساتذة – العاملون) سببا فى تعزيز الفخر بمؤسستهم، ودعم توجهاتها.

فى هذا العام عام ١٩٥٤م قبلت كلية الآداب جامعة القاهرة طـلاب التوجيهية (الثانوية العامة) القسم العلمـى لأول مـرة بقـسم اللغـة العربيـة شرط حصولهم على ٦٠٪ فى مادة اللغة العربية، وكـان عـدد المتقـدمين هـذا العام من طلاب قسمى الأدبى والعلمى نحو ١٥٠ طالبا، وهذا عـدد كبـير بقسم اللغة العربية آنذاك لم تشهده الجامعة من قبل – ودخلت كليـة الآداب جامعة فؤاد الأول (القاهرة) وفى أروقة الجامعة، وعلى مـدى أربـع سـنوات بقسم اللغة العربية بكلية الآداب، عاصرنا قـادة الفكـر مـن أعـلام الـوطن الكبار ممن يشار إليهم بالبنان أمثال الدكاترة: طه حسين، شـوقى ضـيف/

يحيى الخشاب، سهير القلماوى، خليل نامى، محمد القصاص، حسين نصار، شكرى عياد ، عبد الحميد يونس، محمد كامل حسين، يوسف خليف، توفيق الطويل، أحمد فؤاد الأهوانى، إبراهيم أنيس، أبو الوفا التفتازانى محمد محمود الصياد.

كم كانوا عظماء علما وخلقا وفنا ومنفعة لعبت بهم جامعة القاهرة دورامهما كمؤسسة تعليمية بحثية ثقافية وتنويرية قادت وأسهمت فى إنماء وتطوير المجتمع المصرى ، وكان الولاء والارتباط الذى نشأ بين الطلاب وبين الأساتذة والعاملين سببا لتعزيز الفخر بمؤسستنا ، ودعم توجهاتها.

فى مدرج ٧٨ بالكلية كان لنا لقاء مع الدكتور طه حسين كل يوم أربعاء، وكانت محاضراته فى الأدب الجاهلى: الطلبة قد حجزوا أمكانهم، وبعضهم جلوس على الأرض، ووسط الطلاب أساتذة يحرصون على ألا تفوتهم محاضرة العميد، لاتسمع فى المدرج همسا ولا صوتا، تصل سيارة الدكتور طه حسين الصغيرة السوداء، وينزل منها متجهاً إلى المدرج، ويدخل برفقة سكرتيرة د. فريد شحاتة، وتبدأ المحاضرة فى هذا الجو، فإذا سمع العميد حركة تجهم وأحنى رأسه ثم رفعها وزم شفتيه وهى علامة يعرفها سكرتيره ومعناها أنه ينهى محاضرته.

كان أبا عظيما، وهو الوحيد الذى أقام لنفسه بيتايزار (فيلا رامتان) بالجيزة ، الهرم، القاهرة، ذهبنا إليه نطلب منه كتابه – فى الأدب الجاهلى – لعدم قدرتنا على شرائه فأوما إلى سكرتيره فزودنا بالكتاب.

كنا نحدد أيامنا بالمحاضرات وبالأساتذة ، وندخل مع دقات ساعة جامعة القاهرة، ونخرج وننطلق إلى المكتبة، وكانت لنا في أوقات الراحة جلسات تحت قبة الجامعة، وساعة الجامعة تدق، والزملاء يتحاورون ، هؤلاء الزملاء الذين أصبحوا اليوم يعتلون مناصب رائدة من أمثال الدكتور محمود فهمي حجازي الذي أصبح رئيساً لجامعة كازاخستان، والدكتور محمد عويس الذي عمل أستاذاً للأدب العربي، ومن الإعلاميين : هدى العجيمي وكمال خليل وصالح مهران.

كنا ونحن طلبة في السنة الأولى نقول: ليس ألطف من د. شوقي ضيف ، ولا أب أعظم من د. طه حسين.

أما شوقي ضيف فقد كان أستاذاً للنحو العربي، كان رجلا مهذباً ، خفيض الصوت، رشيق القوام، إذا دخل القاعة أو خرج كان في مشيته القليل من الخيلاء، أما طريقته في الكلام فهي كطريقة أكثر الأساتذة ، ينطقون الكلمات بطريقة خاصة كأنه يلحنها، أو كأنه يتغنى بها.

وفي يوم طلبت إلينا الدكتور سهير القلماوي أن نكتب بحثاً عن شاعر ما ، فكتبت عن الشاعر إيليا أبي ماضي، وقدمته، وبعد أيام عادت ووزعت علينا أبحاثنا فوجدت بحثي مكتوبا عليه: أرجوا أن ألقاك في مناسبة أخرى، وكانت هذه العبارة مصدر سعادتي سعادة بالغة، وجعلت أفكر فيها وإن كنت لا أعرف ما سوف يكون في هذا اللقاء ومتى؟

وتخرجت فى كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٥٨م، ومضت السنون وحصلت على درجتى الماجستير والدكتوراه، وتذكرت عبارة د. سهير القلماوى ونحن طلبة..

إلى لقاء آخر إن شاء الله.

(١٥)

تبدأ دورة الإنسان الكونية منذ ولادته واستقباله للدنيا بالبكاء، ثم ترضعه أمه وتفطمه ويتعلم المشى والكلام إلى أن يدخل المدرسة ليتعلم فى مراحلها المختلفة، ومن الناس من يتعلم حتى يلحق بالجامعة ومنهم من يقف عند مرحلة ما من التعليم ولايكمل بعدها ومنهم من لايتعلم تعليم المدارس، والذين يتخرجون فى الجامعة يبحثون عن عمل وينتظرون دورهم حتى يأذن الله، ثم يعدوا أنفسهم للزواج ، ومن بعد الزواج الإنجاب ومنهم من يهبه الله إناثاً ومنهم الذكور ومنهم من يجعله عقيما، ثم تكون الذرية بالأحفاد وهكذا تمضى سنة الحياة وطبيعة الكائنات، وهذا أمر الله ولاراد لأمره، وينتهى الأمر بإنتهاء المشوار فى الدنيا، والاستعداد للقاء الواحد الأحد فمن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها.

وقد مررت بهذه الخطوات إلى أن وصلت لحالة الزواج، فكان لى رأى فيه ، وهو أن يظل الإنسان فردا لايرتبط بأحد، واعتبرت الزواج مسئولية – وهو كذلك – ولكن لماذا أتحمل هذه المسئولية وأنا فى غنى عنها ، ولى الخيار فى أن أقدم أولا أقدم ، وأنا أعلم أن الله أمرنا بالتزاوج وكذلك الرسول ﷺ ، غير أنى كنت أحسب حساب هذه العلاقة الزوجية، ومن ثم الأبناء إن قِدر لى الله الرزق بالأولاد ، فأنا أشعر أنى سأكون المتسبب فى كل ما يصادفونه من شقاء فى حياتهم – وهذا أمر لابد واقع – لأنى عايشته، وتمنيت لو لم يكن أبى قد جاء بى إلى هذه الدنيا، وأنى جئت من غير

استشارة – وقد جعل الله الإنسان مختارا، فلو خيرت ما اخترت المجيء ذلك أنى حملت أعباء كنت فى غنى منها وما تعرضت للسؤال والحساب، ثم ماذنب الأبناء، فى هذه التيارات التى يواجهونها، ونشترك معهم فى تحملها ، ونظل الليل والنهار نرقب أخبارهم، ونتحسس أحوالهم، ثم هذه التصورات الخيالية التى تنتاب الإنسان من حين إلى حين، والتوجه بالدعاء إلى الله أن ينجى الأبناء وأن يحفظ الأحفاد وأن ييسر لهم حياتهم، ويأخذ بيدهم إلى بر النجاة، ماذنبى فى كل ما أصاب به ثم ماذنب ولدى أيضا فى كل ما يعانى منه نعم هى سنة الحياة ولنا فيها رسالة ورسالتنا أن نعبد الله وأن نعلى كلمة لا إله إلا الله، وأن نعمل حتى ينتهى الطريق، نعم أعلم ذلك لكن شيئاً يجعلنى أحاسب نفسى على أمور لم يكن لى فيها ذنب، فهى أيضاً من أسباب الحياة، ويثاب الإنسان عليها ، لكنى كنت أحب أن أعفى نفسى من هذه الاحتمالات، وأن أعفى أيضاً أبنائى منها، فليس لهم خطيئة فيما يرتكبونه، لأنها مقدرة عليهم، وأنهم ملاقوها سواء احتاطوا لها أو لم يحتاطوا، ثم فيما يؤلمهم ويؤلمنا، ويجرحهم ويجرحنا. ويدنا مرفوعة دائماً إلى السماء أن يحفظ لنا ما أمدنا به الله، وما رزقنا به من نعم فى هذه الحياه .. وما من محيص فى أن نرضى بكل ماهو كائن، وبكل ما ارتضاه الله لنا، وما شاء به علينا، وأملنا ورجاؤنا فى لطف الله فيما جرت به المقادير حتى نلقاه مستبشرين.

(١٦)

لم أكن أفكر فى العمل خارج مصر، حتى أقنعنى صديق يكبرنى بعشر سنوات بالسفر إلى الكويت بحثا عن عمل بعد أن باء سعى بالفشل فى البحث عن عمل بعد تخرجى فى الجامعة، وفعلا راقت لى الفكرة خاصة وأن لى أخا وبعضا من زملائى يعملون هناك.

وكانت الكويت فى أول عهودها لم يسمع بها أحد، ولايعرفها إلا القلة ممن لهم معها تعامل وأعددت أوراقى لتقديمها هناك فى المجال الذى يتيسر لنا .. كنت أنا مختصاً باللغة العربية، وكان صاحبى يحمل شهادة فرنسية، وبدأ المشوار باستخراج جواز السفر الذى يشترط لاستخراجه وجود تأمين من البنك بمبلغ عشرة جنيهات، ولم يكن هذا المبلغ متوفراً، ولم نكن نعرف أحدا من عملاء البنوك، وجعلت أسأل وأفتش لعلى أجد من يساعدنى فى هذا الأمر، واستطاع صديقى أن يجد من يضمنه ويعطيه هذا التأمين من البنك، فقد كان يعمل فى التجارة، وله معارف يمكن لأحدهم أن يقدم له هذه الخدمة، وسافرت معه إلى القاهرة لاستخراج جواز السفر لعلى اهتدى معه إلى شىء يمكنى من تدبير الأمر حتى أشاركه فى مسيرته ولكن دون جدوى، فلا أمل ولا فائدة وعزمنا على الرجوع إلى بلدتنا، ونحن متجهون إلى ميدان رمسيس حيث نستقل القطار إلى دمنهور، مررنا على ميدان الأوبرا فى القاهرة – ميدان ابراهيم باشا – وقد نسير على الأقدام، وشعرنا بالتعب فجلسنا على قهوة بجوار شركة مصر للطيران،

نفكر ماذا نحن صانعون، وبينا نحن كذلك، إذا بى ألمح رجلا من أصحاب الجاه يمر من أمامنا ، فقلت لصاحبى أنا أعرف هذا الرجل وهو ميسور، فهل لى أن أسأله فطلب منى الإسراع ونهضت أسابقه وألقيت عليه السلام فأنا أعرفه وهو شقيق زوجة أبى وصاحب منصب كبير فعرضت عليه الأمر فتعجب وأخبرنى بأنه ولأول مرة يمشى على قدميه وهو لايدرى لماذا؟ ودلنى على قريب له فى بنك مصر، وعلى أن أذهب إليه وأطلب منه شهادة التأمين هذه ، فشكرته وحمدت له هذا الصنيع وعدت لصاحبى مبتهجا مسرورا، وألغينا السفر حتى نتمكن فى اليوم التالى من الانتهاء من المهمة الجديدة ونحصل على الشهادة ومن ثم استخراج جواز السفر وقد كان أن تم ذلك فى اليوم الثانى، وعدنا إلى بلدتنا معنا جواز السفر.

بقي أن ندبر أمر ثمن التذكرة من القاهرة إلى الكويت ، وكانت فى هذه الأثناء بثلاثين جنيه إلا القليل، تمكن صديقى من الحصول على هذا المبلغ من قريب له، وعدت أنا لنفس الموقف الذى حدث من البحث عمن يكفلنى فى جواز السفر من الناس أعرفهم يمكن أن يساعدنى فى إقراضى هذا المبلغ ليس لشخص واحد أن يقوم به وأن يقدر على ذلك ، ففكرت أن ألجأ لثلاثة أفراد من علية المجتمع، أسأل كل واحد منهم عشرة جنيهات، وذهبت لأول رجل كنت أعرف مكانته فى التجارة، وكان يعرفنا فقصصت عليه الأمر ووعدته أن أرد له هذا المبلغ حين ميسرة بعد السفر وبعد توفيقنا فى العمل هناك، فلم يتأخر الرجل، وجمعت أول عشرة جنيهات، وجمعت الثانية من آخر على مثل مكانته ووضعه، فأقرضنى العشرة الثانية، ووعدته كما وعدت الأول برد المبلغ يوم يأذن الله بالفرج، وأما الثالثة فقد تعذرت

قليلاً فلا نعرف من الرجال الذين يمكن لهم أن يساعدونا، إلا هذين الرجلين، ويشير علىّ أحدهم بالذهاب إلى أبى، فهو يجلس عند صديق له صاحب مكتبة – ربما أقرضنى هذه العشرة جنيهات المتبقية – وكنت لا أعرفه إلا خيالا، وكان لايعرفنى كذلك إلا طيفا فهو متزوج من غير أمى منذ كنت طفلا صغيراً وذهبت إليه وقدمت له نفسى وهو جالس على كرسى بجانب المحل – وكان ذاهيبة ووقار – تبقت آثارها بعد أن أصبح على المعاش – طلبت منه المبلغ وأعلمته بالسبب فاعتذر هو عن نفسه ، ولكنه سيسأل عم الحاج صاحب المكتبة وسيعرض عليه الموضوع، ولننظر ماذا سيحدث، قام من مجلسه ودخل إلى المكتبة وهمس إلى الحاج فى أذنه ، فأخرج الرجل من مكتبه العشرة جنيهات، وحملها لى أبى خارج المكتبة على أن أردها يوم أن يمن علينا الله بالفرج، وكان هذا الموقف من أصعب المواقف التى صادفتنى فى جمع الثلاثين جنيها ومن أشدها وقعا على نفسى لكن حمدت الله وأتممت كل ما يلزم السفر، وتوكلت على الله واصطحبت صديقى بعد أن استعد هو الآخر لهذه الرحلة، وركبنا الطائرة وكانت ذات محركات من الطراز القديم ، فلم تكن البوينج قد ظهرت بعد ، وكذلك أخرياتها من الطائرات الحديثة، ومكثنا فى الجو سبع ساعات، وهى المدة التى تقطعها الطائرات الحديثة اليوم فى ساعتين ونصف وهبطنا بسلام أرض السلام، وأصبحت لنا فيها ذكريات.

(١٧)

فى عام ١٩٦١ سافرت إلى الكويت للعمل كمدرس للغة العربية، وكان هذا العام هو الذى نالت فيه الكويت استقلالها، ورأيت فيها مظاهر الفرحة والبهجة لهذا الحدث العظيم.

وكانت الكويت فى ذلك الوقت بطبيعتها البدائية، البيوت قليلة والشوارع مغطاة بالرمال، والدور والمصالح تكشف عن بعض الترف والتقدم، والمدارس تعد على الأصابع مع تنوعها من مدارس رياض الأطفال، والمدارس الإبتدائية فالإعدادية، ومدرستين أو ثلاثة للمرحلة الثانوية ، ولم تكن الجامعة قد أنشئت بعد. أما الحياه فكانت حياة بسيطة تمتاز بالسهولة واليسر فى غير تعقيد، الناس تفتح أبواب متاجرهم منذ الصباح وتظل مفتوحة ساعة الصلاة، أمانة ووفاء فى كل شىء تتجول فى أى مكان فأنت آمن مطمئن، ولا تحتاج وأنت تشترى أى شىء إلا أن تذكر اسمك ووظيفتك ثم تسدد ما عليك فى أى وقت تشاء.

حياة خالية من التعقيدات ، وكل ماتحتاجه ميسر لك، لا وساطة ، ولا رشوة ، ولا محسوبية،فا لكل فى حق الحياة سواءاً ولا ينقصك شىء فيها سوى أن العين لاتتمتع بمنظر فيه خضرة دائمة أو مياه جارية، المال موجود ومع أن الملل فتنة إلا أنك لاتشعر بقوته إلا إذا غادرت الكويت.

ويمضى بك اليوم بين عمل فى النهار ، وتأمل فى المساء حتى تأوى إلى فراشك، والناس فى الكويت ينامون مبكرين ويستيقظون مبكرين،

وتمضى الأيام على هذا المنوال، حتى ينتهى العام الدراسى، وتستعد للسفر للمكان الذى جئت منه، ويشهد المطار حركة غير عادية فى مثل هذه الأوقات من العام.

وقد كنت أحمل حقائبى وأقصد أهلى وعشيرتى وأقضى معهم فترة الإجازة الصيفية ثم أرجع إلى حين العمل والتأمل ، وكم كنا شغوفين على العودة إلى الكويت رغم قسوة الغربة إلا أننا لم نشعر إلا أننا وسط أهلينا وديارنا وأصبحت لنا فيها ذكريات لايمكن أن ننساها أو تغيب عنا.

وفى عام من الأعوام التى ننزل فيها لنقضى فترة الإجازة الصيفية، حملت حقائبى كالمعتاد، وسافرت لأهلى وعدت إلى الكويت ومن الطبيعى أن أعد للعودة حقائبى أيضاً، وفى هذه المرة تذكرت سعادتى بالكويت وراحتى بكل ما فيها إلا أننى كنت أحتاج رؤية لون أخضر تسر به العين ففكرت أن أحمل معى تراب مصر على قدر وزنى بدل الحقائب، وأحمله معى إلى الكويت لأعمل منه بعد مزجه بالماء تربة تكون صالحة لأن أضع فيها نوعا من البذور التى تنبت زرعا ذا لون أخضر ولم أحمل معى سوى هذا التراب.

وفى المطار – مطار القاهرة – وكالمعتاد سأل موظف الجمارك عن محتوى الحقيبة ، فأخبرته بأن المحتوى تراب مصر وتأكد الموظف من حقيقة قولى، فارتاب وشك فى الأمر أليس من المعقول أن يحمل مسافر معه ماهو مصرح له من وزن ترابا. أخبرته بأنى لا أحتاج لشىء معى، فلى كل ما احتاجه من ملابس وخلافه فى الكويت، ولما وجدت أنى أحتاج لشىء

يذكرني بمصر، كان هذا التراب حتى يخرج منه ما افتقده فى مكانى الذى أعيش فيه، وما الغرابة فى ذلك.

لكن الموظف لم يقتنع وأخرني حتى يعرض الأمر على من يعلوه، وبلغ المسئولين بذلك واجتمع النفر وأخذوا يبحثون فى التراب ، ويختبرونه بأدواتهم و آلاتهم، وهم فى دهشة وعجب، ولكنهم لم يقفوا إلا عند حب شاب لمصر دفعه لأن يحمل معه ترابها في سفر شاق، وكادت الطائرة تقلع من على مدرجها، لولا لطف الله فقد أدركتها قبل أن تدركنى، وجزى الله الشدائد كل خير، فقد قبلت تراب مصر.

(١٨)

قدر لى أن أعمل خارج مصر فى بدايات عصر الثورة، وكنا نحمد للثورة صنيعها؛ فقد استطاعت أن تخلع ملك مصر، وتقضى على الفساد، وتعيد الحرية والكرامة للمواطن المصرى الذى بدأ يشعر بعودة الذات إليه، وأخذ يمارس حقه فى العمل، ونصيبه فى الرزق، وما كنت راغباً فى أن أترك مصر، وأن أعمل فى الخارج، إلا أن الحظ شاء فكانت إقامتى على غير ما اشتهى غير أن حياة العمل فى المكان الذى رحلت إليه كانت مريحة واستطابت لها نفسى ورغبت فيها بعد أن تغلبت على معاناة الغربة، وقسوة البعاد، وكنت أتردد على بلدى فى الإجازات، وبعد انقضاء خمسة أعوام من بقائى خارج البلاد الذى استمر عشرين عاماً فوجئت بأن أحدا يستدعينى لمباحث أمن الدولة فى لاظوغلى بالقاهرة، فذهبت لمقابلة الرائد المختص فجعل يسألنى عن الأحوال فى المدينة التى أعمل بها، وعن ترددى على المساجد وعن أقوال الناس فى هذا المكان، وعن صدى الثورة فى الخارج ، وكانت إجاباتى عن الواقع الذى أعيش فيه فأنا لا أتردد على المساجد إلا يوم الجمعة وذلك بسبب ضيق الوقت، وعدم الا ستطاعة فى تلبية هذا النداء، ثم إن الناس فى هذا المكان أجناس مختلفة منهم من لا يعرف العربية، وهم كثر ومنهم من يعرفها وهم قلة، حتى مجال التجارة والبيع والشراء أصحابها معظمهم من غير العرب، وإذن فلا مجال للمناقشة معهم أو استطلاع آرائهم، أو الحديث معهم ، ثم إن المقيم فى هذا البلد لا يعرف إلا العمل، والعمل وحده بعيدا عن كل شىء ثم إنهم يستيقظون مبكرين

وينامون مبكرين، وأما عن السياسة فأنا لا أعرف شيئا فيها مطلقا، حتى إن بعض الوزارات لا أعرف عن وزرائها شيئاً، وكذلك عن الأحوال الداخلية شيئا ، اللهم أنى منصرف إلى عملى فى المكان الذى قدر لى أن أشغله، وأخذ الوضع يتكرر كل عام، يرسل فى طلبى عقب نزولى إلى بلدى وأخذت أتساءل عن الذى دفع بى إلى هذا المكان الذى يراقبنى ذهابا وإيابا، حتى عرفت أن أشخاصاً يدفع بهم إلى كل بلد خارج مصر لمراقبة زملائهم، ثم الإبلاغ عنهم لأمن الدولة، سواء عن واقع أو عن غير واقع، وكنت أنا أحد هؤلاء الذى بلغ عنهم عن طريق مثل هؤلاء الذين كانوا مختارين للقيام بهذه المهمة من قبل المسئولين، والدليل أنه قد طلب منى فى أحد المقابلات أن أقوم بمثل هذه المهمة، وأن أكون أحد الأفراد الذين يعملون فى هذا المجال وقولى مصدق على طول الخط، غير أنى اعتذرت بعدم قدرتى على القيام بمثل هذا العمل، وأن تكوينى غير صالح لهذه المهام، ولكن الوضع استمر على هذا الحال: استدعاء، ومقابلة ومناقشة ثم لاشىء سوى، أننى كنت فى حيرة، لماذا كل ذلك وليست لى أية علامة تدل على انتمائى لحزب أو جماعة أولى أفكار غير واضحة ، فأنا بعيد كل البعد عن أى من السلوكيات التى قد يتعرض الإنسان منها للمساءلة، وحاولت جاهداً أن ألجأ إلى أحد يخلصنى من هذا القيد دون جدوى، حتى انتهت مدة عملى وهى عشرون عاماً عدت بعدها إلى الوطن ، وتسلمت عملى به وهو امتداد لنفس العمل الذى قمت به فى ميدان التدريس، ولم ينته الأمر عند هذا الحد، بل جعلوا أيضاً يستفسرون ويسألون كعادتهم وأنا الذى تنحصر ملكاته وقدراته وميوله وهواياته فى أى شىء بعيدا عن السياسة، أو عن المسئوليات التى تكلف

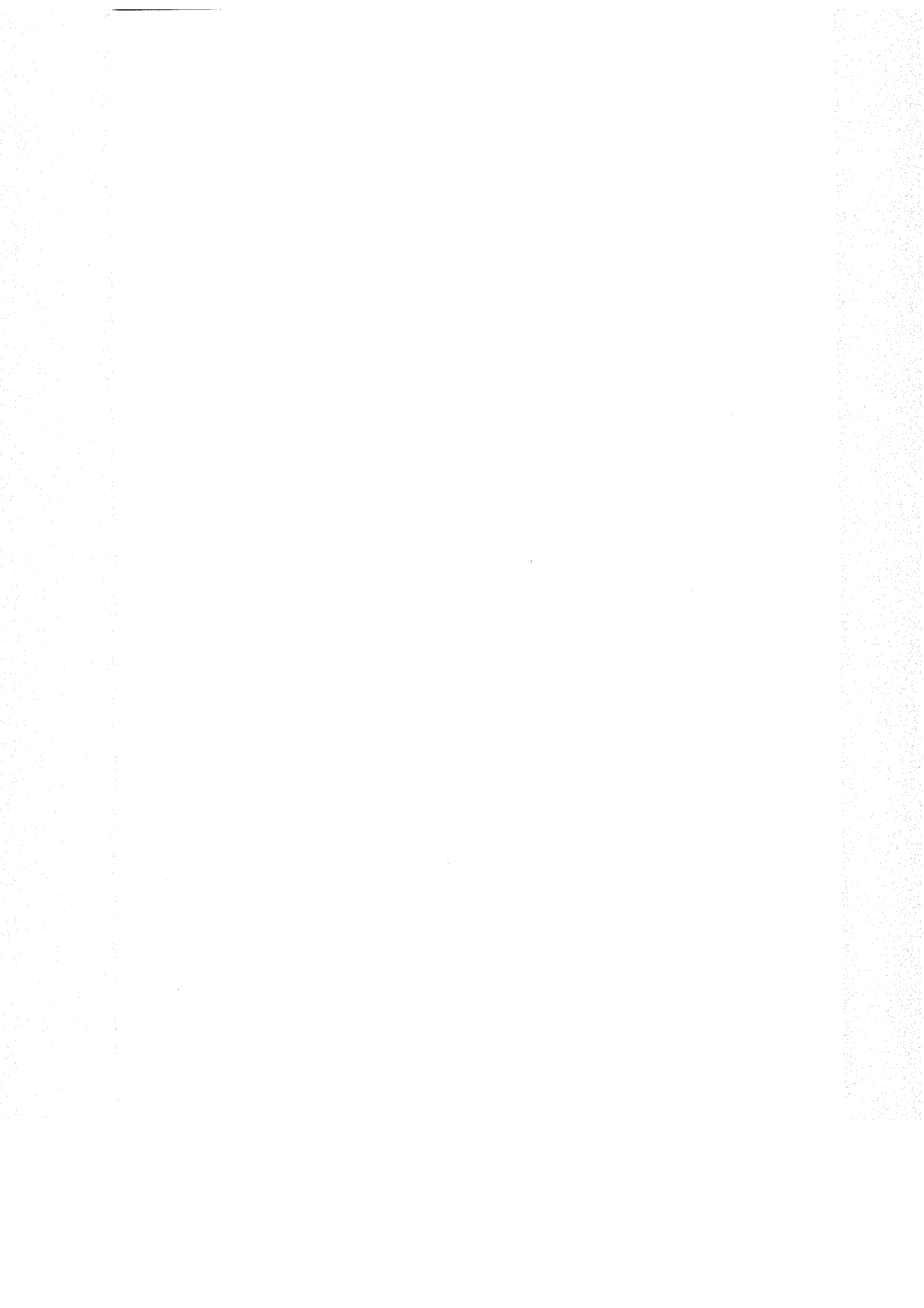
المرء جهداً فى تحملها، استمر ذلك حتى أشرفت على الثمانين من العمر. وتقدمت السنون ووهن العظم واشتعل الرأس شيباً، وهدأت العاصفة.

جهد بُذل وراء سراب، وكلفهم الكثير من الإمكانات، وخسروا من خلاله ما خسروا، فقد كانوا فى هذه الفترة مشغولين بجمع المعلومات عن المواطنين، ومعرفة أخبارهم، وبعدوا عن العدو وجمع المعلومات عنه، وشغلوا بغيره عنهم من أجل ذلك كانت نكسة ١٩٦٧م التى خلفت للبلاد بعدا سيئا لم نتخلص منه إلا عندما كان النصر المؤزر فى عام ١٩٧٣م، وعادت لنا عزتنا ومجدنا وأصبحنا نباهى بأنفسنا فى كل مكان، ونفتخر بزعامتنا وجندنا، ولن يضيعنا الله مادمنا أقوياء.

كلمات

- برىء الرسول ﷺ من الصالقة والحالقة والشاقة.
- ما يخدمك أطول عمرا منك.
- الدنيا هى عمرك فيها، وعمرك غير محدود.
- الصبر حمل النفس على التجلد على الأحداث.
- الجدل هو الحوار بين اثنين.
- البعرة تدل على البعير، والقدم يدل على المسير.
- أول من استخدم التعبير المئوى عمر بن الخطاب.
- كل سلعة مبيعة، وكل سلعة مشتراه.
- من شغله ذكري عن مسألته أعطيته.
- سيظل عطاء الله فى كونه إلى أن تقوم الساعة.
- درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة.
- الفقير شرط فى إيمان الغنى.
- رب نفس عشقت مصرعها.
- الشح طبع القلب، والبخل طبع القالب.
- عبد الرحمن بن عوف كان له ألف عبد، ودخل الجنة ببطء لاستجوابه عن هؤلاء.

- الغوص يقلل حجم الارتفاع.
- مراتب الشعور أن يدرك بحواسه.
- اغتربوا لا تُضْوُوا.
- الكبت: صدمة بهزيمة.
- الغيب ما غاب عن الإدراك.
- النملة والفأر والإنسان هم الذين يدخرون غذاءهم للغد.



(١٩)

وعاد الفتى إلى وطنه بعد رحلة عمل فى البلاد العربية، وما أن نزل من الطائرة، حتى وجد بعض أهله فى انتظاره فى شوق وحنين، استقل السيارة معهم وأخذت تطوف به شوارع المدينة التى تركها، كانت عينه شاخصة، وأذنه مسترقة، وفؤاده يشهد ذكريات الماضى، ألوان الورود الزاهية وعبق الأماكن القديمة وحركة الحافلات فى الطرقات، عاش فى حلم حقيقى كان يراوده، وأخذ يردد رؤية شوقى الشاعر:

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخد نفسى

تسلم عمله الجديد، واستقرت الأسرة حيث مكن لها أركانها، وراح يتعامل مع المجتمع الجديد ، أصبحت دنياه أوراقا وأختاما وملصقات، وتعاملات يفنى فيها كل الوقت ويضيع دون أن يثمر بشىء إيجابى ، العاملون يلبسون أقنعة لاعهد له بها، وهو الذى عاد ومعه المبادىء التى عاش بها وعرفها فأراد أن يكون مواطنا شريفاً، ودفعته بحكم الفطرة على أن يكون أمينا صادقاً، مخلصا متقنا لعمله، فوجد أن هذا السلوك لايتفق وسلوك من يتعامل معهم، لم يجد شيئاً مما تعود عليه، وبحث عن الصدق فى هذه الملايين التى أصبح منها فلم يجد واحدا صادقا، ناهيك عن العمل المتقن، وهذا ما دفع الذين معه فى العمل أن يقولوا أخرجوه فإنه من المتطهرين، أحس بالغربة وسط أهله، وأدرك معنى جديداً كان يخالجه ولم يتحقق منه إلا بعد العودة ، الوطنية ليست وطنية المولد، والنشأة الأولى،

وإنها وطنية الدم والجنس والعرق.

أخرجه رجل قدمه بتهمة الإصلاح، ولا يعرف المجتمع هذا المعنى، فا ستجابت له كل الرءوس، وأصبحت القشة التى قصمت ظهر البعير.

الإصلاح هو القشة، واستغاث الفتى وارباه قضية بين حق وباطـل، هناك دعا ربه أنى مغلـوب فانتـصر فاسـتجاب لـه ربـه أنـى لايفلـح لـدى الظالمون.

وفى ليلة من ليالى التأمـل والتبـصر والتفكـر والتـذكر، سـار الفتـى متجها إلى بيته، فشاهد جمعا مـن النـاس تختلط أصـواتهم بأصـوات حركـة الحياة، تذكر ما يعانيه من التلوث الضوضائى والتلـوث الفكـرى والتلـوث الخلقى والتلوث البيئى، وزج بنفسه وسط الزحام .. كان الخطـب فادحـا.. فالرجل الذى أراد أن يوقف عجلة الإصلاح، توقف عـن الحيـاة، وأوقفتـه حكمة القدر.. والناس تطلـب مـساعدة مـن يحمله للـصعود بـه إلى مثـواه الأخير، زفر الفتى زفرات ترحم عليه .. ويبقى الإصلاح دعوة السماء.

(٢٠)

رسالة إلى الكويت فى ذكرى استقلالها الخمسين، وهى تحتفل بعيدها الوطنى فى شهر فبراير من كل عام ابتهاجاً بهذه الذكرى العظيمة، وتعاودنى الذكرى منذ كنت أعمل مدرسا بمدرسة العمرية عام ١٩٦١ القريبة والمطلة على قصر السيف العامر، ومن هذا التاريخ والناس فى كل مكان فرحون بهذا النصر المؤزر .. أطفال وشباب وشيوخ ونساء الكل يعبر عن شعوره بهذا اليوم، ويسترجع عبق الماضى الكبير، ويستحضر الأمجاد القديمة التى تعلو مع الأضواء المنبعثة فى أرجاء المعمورة.

لقد هيأت الكويت للإنسان العيش الكريم، وأحسنت تنشئة الأبناء، وزودتهم بسلاح العلم والأخلاق، من أجل غد كويتى مشرق، يعيشون اليوم إشراقه ، ووفرت الحياة الكريمة مع مزيد من التقدم والرفعة والرخاء لجميع المواطنين الذين يعتزون بشرف الانتماء للكويت، ويقدرون ذكرى من ضحوا من أجلها.

وهو عيد لجميع الوافدين إليها ، والمقيمين بها، ولا أنسى تأييد الوزارات والمصالح والمؤسسات والمدارس وجميع القطاعات وهى ترفع لصاحب السمو الشيخ عبد الله السالم الصباح – رحمه الله – أزكى التبريكات، وأسمى آيات العرفان بفضله العميم، وخيره الموفور وعطائه الجزيل، كان رحمه الله إلى جانب مروءته ونخوته العربية، وحميته من أجل الذود عن الوطن أديباً وشاعراً فيه الحس المرهف والذوق الفنى الراقى

وكان رحمه الله لا يرد سائلاً، ولا يمنع محتاجا باب قصره فى الشعب مفتوح للقاصى والدانى، للمقيم والمرتحل، القانع والمعتر.

من أجل ذلك بكته القلوب وخرج القوم والنساء من كل صوب وحدب فى مشهد تشيب له الولدان، وتخرله الجبال، كأنه البعث وعلت الأصوات إلى السماء شيباً وشبابا وولدانا، شيوخا وكهولا ونساء ربنا وأنزله منزل صدق، وألحقنا به مع الصالحين، إنه نعم العبد الأمين، وقد كنا نستعرض مع طلابنا فى المدارس سير الخالدين وكفاح الوطنيين فنذكر تاريخ الكويت وما أنجبت من شباب مقبل على الدرس والعلم والثقافة، شباب مكتهل فى شبابه، يرمز للشموخ والأنفة والطموح ومن وراء ذلك أمهات هن أولات فضل على هذا الوطن الغالى العزيز، فالأبناء رمز للعطاء وهم نتاج الأمهات الصالحات.

خمسون عاماً والكويت تشهد منذ استقلالها وحتى الآن عددا من الإنجازات الإقتصادية فى مختلف القطاعات الإنتاجية والخدمية بشكل أحدث مزيدا من الرفاهية، والاستقرار، والتحسن فى المستوى المعيشى للمواطنين ومنحها سمعة دولية متميزة باعتبارها لؤلؤة حافظ عليها غواصها وزادها بهاء وجمالا وسنى، وبفضل قيادة أصحاب السمو الشيوخ الذين أتوا بعد عبد الله السالم الصباح، قيادة حكيمة رشيدة أولت اهتماما ملحوظا بالإنسان الكويتى، باعتباره رأس المال الحقيقى لأية تنمية كما عززت دور المرأة فى التنمية الشاملة.

حمى الله أرض الكويت، وأعز أهلها، ونصر شعبها، وأدام عليها نعمتها، وحفظها من كل سوء.

٢٠١٠م

(٢١)

ودق ناقوس الزمن، وتركت العمل مهنة التفاهات اللذيذة، المهنة التى أحذرك منها، إنها مهنة تغرق صاحبها بالعلاقات الاجتماعية، والمعجبين والمعجبات، والمكالمات التليفونية، والرسائل وتبعده تدريجيا عن الثقافة والعمق والجدية.

وسرعان ما أفقت لنفسي وأتيحت لى فرصة تعديل المسار عندما تقدمت لنيل رسالة الماجستير والدكتوراه.

كانت الوظيفة تحمل لقب الدكتوراه وعندما تقدم العمر وتركت الوظيفة أخذت وجوه الناس تلاحقنى فى الشوارع والطرقات والمركبات وأصبحت أصواتهم تنادينى بالحاج، اللقب الذى يحمله كل من تقدم به العمر.

وهكذا أصبحت نظرات الناس تخترق جدرانى وأنفاسهم تصم آذانى وتعود لى الذكريات تلاحقنى كالأمل الشهيد، باهتة الألوان وأمضى إلى المجهول وأعود كما بدأت أول مرة وأردد هذه الكلمات.

إذا بلغك الكبر تركك الصغير والكبير تؤنسك الوحدة ولاشىء غير صدىَ السنين أتساءل عن كل شىء كان وما آلت إليه الأشياء، ورونق الشباب يتيه فى النفوس، ويضيع الطريق، وتتراقص الذكريات وأعود لأرى وجوه الناس تغيرت فالجيد تفضحه حبائله والرأس كالثغامة على جبين الزمان.

السنين فى جيدى ، يدى، إهابى ظلام أسدل بلا أستار، ويـدوم مهـا طال أيها العمر الباقى أحسبك لن تجود، أشجار وثمار لغيرى تعود ولـنعلم: إذا ضاع المال فلا شىء سوى الخيال، وإذا وهنت العظام ، شخص البصر فى وجوه العود

وإذا اشتد بياض شعر رأسك، ابيضت عينـاك مـن حـزن الآخـرين ستصحو على فجر بصوت البكاء، وستلبس الدنيا رداء بلا لون .. فجـر بـلا صباح ونهار كسيح، ورفاق يهرولون ، يصبحون ولا يقبلون.

سألت عن الصديق ، عن الإلف، عن القريب، هنـاك خلـف المـوج أيها الغريق، وتحطمت سفينتى التى صنعتها على عينى، وتناثر الحطـام حتـى غدا فى أفق بعيد، حتى التى كانـت تـصاحبنى ، مـر زورقهـا فـوق الجـثمان، وصوت يخبو تحت الماء وتطفو فقاعات.

سجلوا أنفاسى الباقية واكتبوها ، فالقلم يتراقص عـلى صـفحة المـاء الزرقاء، أيجدى رسم قلم على الأوهام، أهذا هو الرحيل؟

(٢٢)

أشار لى أحد الجالسين بأن دورى فى آخر الصف، تظاهرت بعدم الإكثرات، ووقفت فى الساقة، كنت أنتظر الأعداد التى تقف أمام الشباك حتى ينتهى الناس من صرف معاشاتهم.

تابور من النساء، بجانبه تابور من الرجال، وسيدة الشباك تقوم بمهمتها بالتناوب بين الفريقين، يقدم الرجل بطاقته الشخصية، وتطلع عليها الموظفة، وتراجع رقم التأمين وتتأكد من الاسم وشخصية المتنفع وتبحث فى كشف الصرف، ثم تسجل أمام رقمه واسمه بيانات البطاقة وتدير الكشف بعد ذلك أمام صاحب المعاش ليوقع أمام بياناته وتعيد سيرة الكشف الأولى وتتأكد من المبلغ المستحق وتخرج النقود، وتراجعها مرة لنفسها ومرة أخرى لصاحبها ويتم تسلم المبلغ مع البطاقة وفى لهفة المحب يراجع المحال إلى المعاش استحقاقاته، ثم ينصرف ليفسح المجال لمن بعده، ويأتى دور النساء بإتباع نفس الإجراءات، وتنصرف لموعد آخر، وفى إبطاء المذل المنعم تتم هذه الدورة وسط مخاوف وأمنيات تخوف من ضياع الوقت والعودة بخفى حنين وأمنيات بأن يحرز نصرا فى الحصول على معاشه فكلما تقلص الدور بعد لأى يدخل واحد من الحاضرين ليأخذ مكان زميله إما لمعرفة بالموظف وإما لأنه معاق أو طاعن فى السن، وفى الحالتين الأخيرتين موقف إنسانى يسمح به الآخرون، أما المعارف والمحسوبيات حتى فى هذا الموقف فهى كثيرة وحدث ولا حرج وعلى كل حال فحركة التابور بطيئة حركة يتقدم فيها المستحق إلى الأمام كحركة الكراسى الموسيقية.

أثناء هذه الـدورة شخـصت ببـصرى نحـو هـذا الجمـع المتهالـك، الرءوس كالثغامة، تنبىء عن نكبات الأيام، والأجسام بين ناحلة فى ضـعف أو مكورة فى سقم ويدخل من الباب جديد قاصدا الشباك فيشار إليه باتبـاع النظام مسرح يتحرك عليه أنماط مختلفة مـن البـشر لكنهـا كلهـا قـد علاهـا الزمن ورسم خطوطه على وجوههم ، وترك علامات تدل على مسيرتها.

فمن متكىء على عصاه، ومن مستند على غلام، وآخر معاق يـتلمس الطريق ليصل إلى الـشباك مـستعطفا أصـحاب النظـارات والعـصى، حتـى يساعدوه فى إنجاز أمره سريعا لعدم قدرته على الانتظار.

وتتدافع الأصوات من بعيـد، كأنهـا مـوج مـن فوقـه مـوج.. الـزم دورك.. النظام النظام وتنتظر ساعات وترى الأصـوات بـين خافتـة، وبـين شديدة لمن فيهم القدرة قليلا، وينبرى أحد الحضور ممـن يحـتفظ بـشىء مـن القوة مع الضعف.

ياجماعة هذا موقف إنسانى ولا بأس من أن نـصبر ونـؤثر الـضعيف والكل ضعفاء ويقع القول على البعض وقع الرضا ، ويبقـى الجمـع الآخـر على تذمر وقلق وضيق، وتكاد الأيدى تتراشق والعيون يتطاير منها الـشرر، رغم بياضها لكبر أعمارهم.

الخطوات وئيدة، والنظرات زائغة ، والأجسام كليلة والأيـام قليلـة، والنهاية قريبة والأمل متعلق بهذا الشباك، آخر مكان للعبور للآخرة

عمر الكون $4\frac{1}{2}$ مليار سنة

وعمر الخليفة مليار سنة على الأرض

هكذا تعلن الإحصاءات، وخلال هذا العمر من الزمان شيدت مدن ، وأقيمت بلاد وسادت أقوام وتبدلت أقوام ، وعُمرت الأرض وامتدت مساحتها لتستوعب كل ما يطرأ عليها .. وبالطبع تتكاثر الأجناس من عصر إلى عصر، وتزداد كثرتهم جيلا بعد جيل منذ آدم حتى وقتنا الحالى، قوم لوط وإبراهيم وقوم موسى وعيسى ثم أمة محمد .. ومن الطبيعى أن تتكاثر أعداد الناس من فترة إلى فترة منذ بدأت نشأة الأرض حتى مانراه اليوم من ازدياد خارق فى سكان الأرض حتى بلغت حوالى سبعة مليارات نسمة، وهذا رقم لم نسمع به من قبل رغم مرور السنين المتعاقبة من عمر الخليقة على الأرض، فهل ستستمر هذه الزيادة حتى تصل إلى أوجها، ولماذا لم تحدث مثل هذه الأرقام من قبل، وعلى مر الممالك والأمم والشعوب السابقة .. وهل سيبقى الحال على هذه الكثرة أم ماذا؟ أسئلة حرت فى تفسير نتائجها، غير أننى رأيت أن الأرض لاتستقر على ماهى عليه، إنما يسكنها الناس ويعمرونها ثم تأخذ فى الزوال، وتصبح ترابا من جديد يقيم عليها غيرهم حياة جديدة، وتبدأ من حيث انتهى الآخرون ، وهكذا.. وعلى ذلك لابد أن يأتى وقت نكون فيه نحن وما شيدنا ترابا فوق التراب.

لتبدأ دورة الحياة من جديد ويعود كل شىء يتعامل بالخردة والمليم

كما كان من قبل، وإلا فأين ذهبت عاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد؟

وأين ثمود والمؤتفكة وأصحاب الأيكة ، وقوم ابراهيم وقوم نوح وغيرهم من أقوام جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذى الأوتاد.

جاء وعد الله فدك الأرض دكا ودمرها تدميراً وأهلك مرة بريح صرصر أو بريح عقيم أخذهم أخذة رابية ومنهم من خسف به الأرض ، ومنهم من أغرق، ومنهم من أخذته صاعقة العذاب الهون، ومنهم من أهلك بالطاغية وما نحن ببعيدين عما يحدث لنا اليوم .. زلازل وبراكين وفيضانات وأعاصير ، وريح صرصر، وهرج ومرج، وأمراض لم نسمع بها من قبل .. وفتن وفجور وفسوق وعصيان، وتغير فى نوعية المناخ، وتغير فى نوع الجريمة لابد إذن من أن تهلك مثل هذه الأرض، وأن يهلك من عليها لأنهم استحبوا العمي على الهدى، واستكبروا فى الأرض وطغوا فيها، وأكثروا فيها الفساد، وقالوا من أشد منا قوة، وكانوا يجحدون، وبطروا معيشتهم.

سيهلك الله هؤلاء بذنوبهم ، وينشيء من بعدهم قرنا آخرين، وينجى الذين آمنوا وكانوا يتقون، بصائر للناس، بلاغ فهل تظل الأرض ومن عليها فى هذا الطوفان من البعد عن الله، ونسيانه، والخوض فى عرض الدنيا وأنهم باقون عليها معمرون فيها ، سيصبح كل الذى فوق التراب ترابا، ويهزم الجمع ويولون الدبر، وتعود الأرقام إلى بدايتها فما من عصر مضى وقد حقق هذا الرقم من البشر، سبعة مليارات نسمة فيها بين عدد من

السنين قليل، ولماذا لم يحدث مثل ذلك من قبل؟

ستعود الحياة بقوم آخرين يتعاملون بالبدائيات، وستكثر أعدادهم حتى تصل إلى نفس الرقم أو يزيدون، ويتكرر المشهد مرة أخرى وسيكتشف الناس وهم يحفرون الأرض مبان وأعمدة وآثارا تعود إلى العهد القديم.

كم كان عدد الناس فى عهد آدم – عليه السلام – وكان من المفترض أن يزداد هذا العدد على عهود الأنبياء والرسل إدريس ونوح وإبراهيم واسحق ويعقوب وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس ولوط وهود وصالح وشعيب وذو الكفل حتى سيدنا محمدﷺ ويونس أرسله الله إلى مائه ألف أويزيدون هم كل من كان فى هذه الفترة لو كان الازدياد مطردا لوصلت إلينا أعدادهم بالمليارات ولكن كلما حدث عمار فى فترة ما وأخذ الناس حظهم من الاكتمال فى كل شىء جاءها أمر الله ، فأصبح كل شىء فيها إلى تراب حتى يأتى من بعدهم قوم آخرون فيبدأون من جديد وهكذا، فلو أن المائة ألف تكاثروا طبيعياً لأزدادوا كلما ضمهم عهد آخر وهكذا.

(٢٤)

يوم الجمعة ٢٤ من ذى القعدة ١٤١٩هـ

١٢ مـــن مـــارس ١٩٩٩م

لم أطق وداعا والركب مرتحل. كنا نجمان فى سماء، ارتحـل نجـم، ولم يزل نجم يرقب الأمسيات القادمة، وكنت بجوار الشاطىء، فجلست فـوق صخرة صماء أتابع الموجة وهى تجرى وراء الموجة، ومن بعيـد نـورس يحـوم فى هياج صخيب، حتى هوى فى انكسار وسط أمواه البحار، تراه يعود وقـد اختفى عن الأنظار، كنت أراه بالأمس بهجا فى ضحى الأفق القريب، يشدو فتناديه أسراب من جديد، ثم يهيم على صفحة الماء فتثنيه موجة عن الـرؤى، لاتلبس أن تكشف عنه من جديد، وتحتى أمواه يصل حصاها صـليل الحـلى فى أيدى الغوانى، وحولى أطفال يلعبون فى مرح وسرور، بينهم غـلام غـض الإهاب، ذهبى الشعر، أبيض الجبهة، حلو القـسمات، كأنـه لؤلـؤة منثـورة، أسكره الحزن فراح يستمطر السماء العدل، ماذا أسكره؟ وجعلت أنظر إليه ، ونحن على حالنا حتى انتزعت الشمس من كهفها، وصـارت كـرة ضـخمة من نار لتكشف عن مشهد فى الآفاق ، غفل عنـه كـل النـاس ، هـو ذا قـدر الحق ما بقىَ الناس غُفل فى واديهم السحيق وتوارت النوارس، وصـارت فى أعماق البحار والتـف الأطفـال فى دائـرة يـسمعون صـدى الغيـب المـستور وحدثتهم حديث المجهول أنى وأنتم نبحث عن شىء مفقود، ثـم انـصرفوا

وظللت مع المساء فى ذكرى الماضى العميق، وحلقت أجنحة الصبا والشباب فوق رأسى، ورفرفت باسمه لطيبات العشير، وتذكرت رحلتى فما ضيع قدم، ولا ضل طريق ، فأنا المسافر بلا قدم، أمضى إلى لا طريق، لا خل ولا رفيق، والدرب كالحطام والهشيم، وأنسى كل شىء، و أرى أمامى روح الجمال والصفاء والنقاء، تعانقني مع خواطرى، ذكرى صباى حين كنت أرنو إلى جمال الطبيعة استوحيها منظومة عقد لحياتى القادمة ، فلا أزال أجمع جماناتها حتى تعوزنى واسطتها، فتنتشر الحبات صرعى فى كل اتجاه بعيدة عن أحلامى الملائكية.

وسط زحام هذه المشاهد التى تتداعب أمام خيالاتى، يوقفني ضوء فى مسيرة الظلام الحالك، يعيد إلى جسدى الناحل، وقدمى المهزول دفقة من نشور تحيل الموات حياة.

أى طيف هذا الذى يراودنى، ويسبقنى إلى خواطرى؟ وأى أمل الذى أصبح شهيداً يهب من مرقده؟ ترى أتبرق سماء بعد بكاء؟ وتضحك أرض بعد موات؟ ترى لطير يضم جناحه على جرح يطير ؟ وهل يعود نورس بعد غياب؟

وتركت المكان الذى جمع أمامى أيام الوصال، وصل دام فوق الأحلام ، وخشيت الملام وسارعت أغمض عينى لأسقط الأوهام فى بحر النسيان، وتأخذنى العبرة فتجعل بينى وبينها سترا يحرقها دمعى، ولا يزال الليل ساجيا إلى نهار ما أوحشه، ويسمع صوت الهاجس الوحيد يردد: وحدى أصبحت أشكو الجوى .. بعدما كان الوداد واللقا.

(٢٥)

غاب القمر، وملأ الحزن الضلوع، فرمز الأمومة والوفاء باتت عند الرسول، فالقلوب متبولة، من إثرها محزونة، فلا الدار دار، ولا الأنيس خليل، وأصبحت الأشياء باهتة الألوان فى زيها الرتيب، تصرخ بنشيد الأم فى الربيع، فيجيبها الصدى والترجيع بكلمات دون لحن مصيب، ذهبت لوادينا الحبيب، درة الأحلام الوردية، والليالى القمرية، ننظر إلى الشاطىء حين تغيب الشمس، فى ردائها الأحمر، ونعاود الحنين لشروقها فى ردائها الأبيض، وحولنا كل شىء، قد سكن، حتى أجراس التليفون ماعاد لها رنين، وأوراق الجرائد ذبلت كالرميم، ويخيم هدوء يحيل المشاهد إلى ذكريات كانت مع الأيام، عبر المسير فى الشارع الخلفى يحيل المشاهد إلى ذكريات كانت مع الأيام، عبر المسير فى الشارع الخلفى، وأمام الحافلات، وفى القاعات العالية، ومرائى الكائنات الحانية، تودعنا لمساء يجمعنا، وتتفرق حبائله لنبدأ الدورة من جديد، وأرى صورتها فى العهد الجديد ينبىء بنهاية الرواية وخاتمتها، وقد تحول أبطالها جميعهم إلى دمى، كل فى طريق فلا الحلم دام، ولا المسير.

يارفيقى كل شىء هان، معلنا صوت الحق الذى شاء، وإن كنت قد أعلنتها، فقد برهنت عليها حتمية البيلوجية الإنسانية ، التى سبقتك إليها، فلم استغربها منك لأنى أحسستها من ذاتى التى تتوق إلى العدل حيث لايكون إلا هو ردءا للمعذبين.

يارفيقى طر بجناحيك عبر الحدود والسدود، وحلق مع الأطيار فى سماء الوجود، فربما صرت من الملائكة أو المقربين، فافعل ما شئت فكل شىء مقبول، واقرأ كتاب العمر، فلا تزال باقية، هناك فى محرابك وأنتِ تطوفين، ثم قفى أمام الكعبة المشرفة، عند حجر إبراهيم، وقولى هنا كان حبيب، مر فى شوق إلى المسجد النبوى، والأكف قد تجمعت عند شباكه، والأثر باق على رمال الكهوف، فتزودى فإنى كنت بها مقيم، ولا تبرحى قمم الجبال، فلكم تذكرتك ساعة الغروب، وعند الشروق، ويوم رأيت الحمام فى حمى الرحمن، بحت له بخواطرى عساه ينقل إليك عبر الأثير خواطر عابد منذ سنين، وها أنت ترينه فسليه عله يجيب وفى المسجد الحرام التفت الجموع تذكر الله، وكان صوتك يردد معهم نشيد الحجيج فلا تستغربين، فخطواتنا مكتوبة فى عالم الذر، وما يحدث ترجيع لصوت الحق.

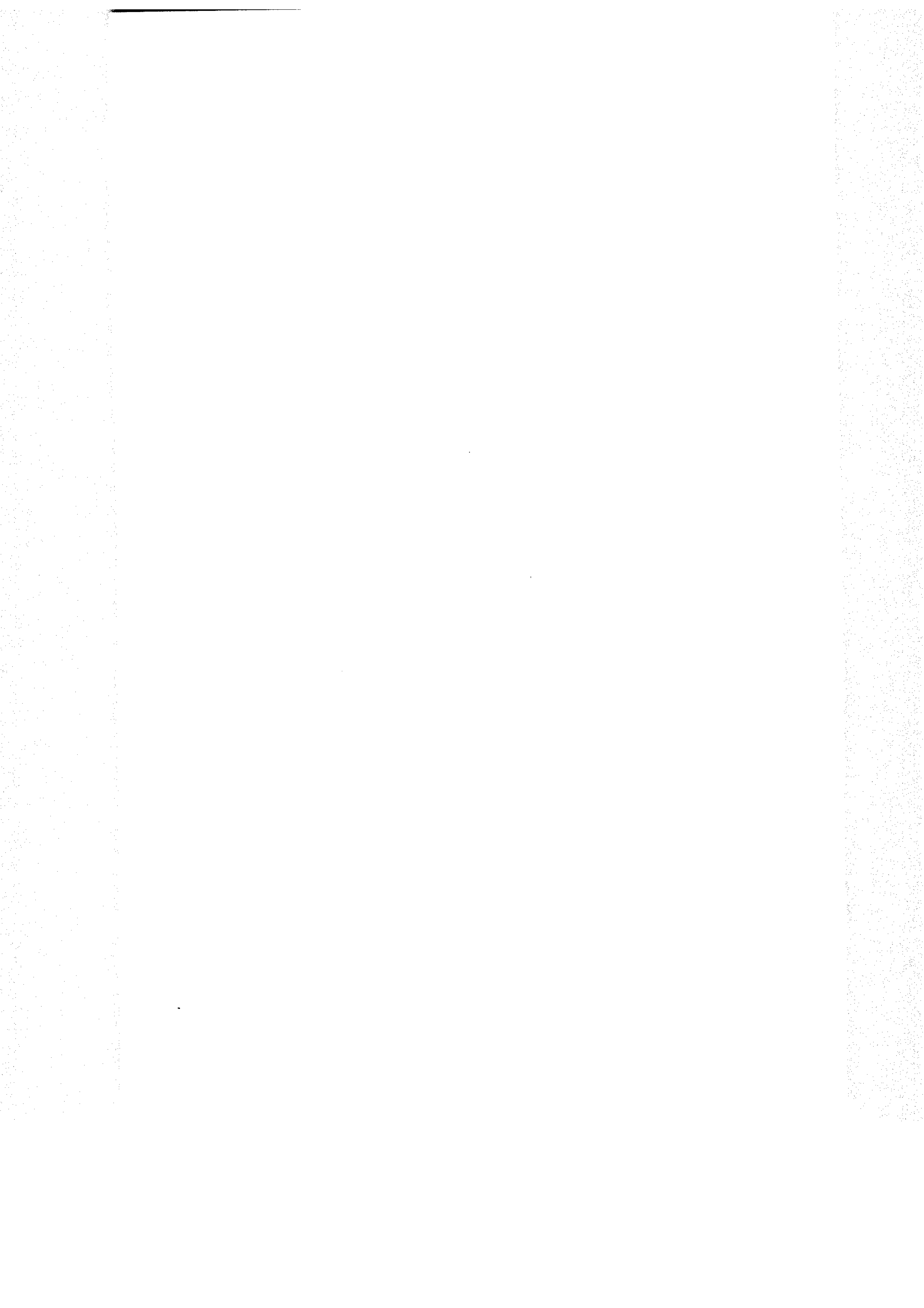
وتلامس قدماك آثار قدماى فى هذه الرحلة، فطريقنا واحد، وفى هذا المكان لابد أن تتعلق به القلوب وليس سرا أن أقول إن مرورى بالمكان جعل قلبك يرنو إليه، وفؤادك يفكر فيه حتى كانت الرحلة، وربما تجسدت أمامك الحقائق كما هى وأولها تواجدى فيها يوما ما..

ومن فوق عرفات، والناس جميعا فى حضرة الرحمن، رأيت الدموع تنهمر من المآقى ثجاجه مدرارة، كان يوم جمعة نفس هذا اليوم الذى تستجدين فيه الرحمن سمعت الأصوات تتعالى فى صياح كأنها تطلب أمراً مستحيلا تلح فيه وتكرره، ووقفت أنظر حولى أتساءل لماذا لا أكون مثلهم، لم تذرف عينى دمعة، وتجمدت الدموع فى المآقى، وتحجرت، ولم أنطق ببنت شفة، كأن سدودا بينى وبين الكلام، وعجبت لأمرى .. ألست كهؤلاء

الملايين كلهم يبكون، يتضرعون، يلومون أنفسهم على أمر قد قدر، بذنوب ملؤها السماوات والأرض، فجاؤا يطلبون العفو والغفران فى هذا المكان المقدس، أما أنا فقد كنت فرحا مستبشرا كأنى أرى الحبيب، فلم البكاء والعويل، وها قد لقيت المعين وهو معى فى كل حين .. ولماذا هذا المكان بالذات تكون فيه الآهات، والله فى كل مكان، وهل لايستجاب لعبد حتى ولو كان فى جوف حوت؟

فى صمت القبور قابلته، وبكيت له فى خشوع دون وعى منى، ونظرت إليه طالبا حاجتى فى سمت الطفولة البريئة، دعوته فما أعرض ، ورأيته قريباً مجيبا كل دعاء، ولا زلت فى رحمته دوما إلى أن يشاء. أما فى هذا المكان فقد رأيت النور يملأ الرحب أمام الأبصار فتتولد كلمات جديدة فيها رسوخ البناء القوى الشامخ، وتماسكت كلماتى تماسك الجماد الصلب، يشد بعضه بعضا، وتبدو الخطوط مستقيمة، والزوايا قائمة والرؤى واضحة إلى الله الذى شدنا إلى الكعبة المشرفة والمسجد النبوى، وإلى الغار ثم إلى عرفات فى حنين وهزة مشتاق، وبعدها رجم للشيطان ذكرى لأب الأبنياء إبراهيم عليه السلام، وتحية له واحتراما، وإحياء لما قام به ليسخل الشيطان.

لقاؤنا فى هذا المكان كان موعده نفس الموعد، وعلى عرفات نفس اليوم، ولم تلعب الصدفة دورا بهذه الدقة وتلك الغاية إنما التواصل والاتصال ومجريات الأمور منذ عالم الذر.



(٢٦)

عيدك صار عيدين، وتاهت القلوب إلى أيهما تهفو،والأصوات فى الفضاء ضاعت، من يسمع تهنئة العيد ،ولمن تقدم الهدايا رمز الحب والحنين ؟ وشعاع الفجر لم يكد يبين ، وانطفأت الأنوار من جديد ،وعلى الجزيرة وقوف بلا دموع ،أين الملاح القديم؟ وتتناثر اللعب،وتتبعثر القصاصات بلا مجيب ..ترى أينذر القدر بسره الرهيب ،حيث ساقنا لهذا المشهد العصيب ؟أم طوفان الحياة لا بد له أن يجرف الغث والثمين . وتلعب المقادير لعبتها السحرية فى الكون العجيب ،ويعود كل شئ لزوال كما كان ، وتبقى الحركة ساكنة رغم أنك وإن لم تكونى هاهنا، ففى عبق الزهور ، وطيب الورود،أنت أينما وجهت الطرف فى الوجود لك أثر ...

أنت رمز فوق كل تصور ياسيدتى .. يا امرأة فوق كل نساء الدنيا ، تبقين سيدة العالم وإن اختلف العالم عليك ،فأنت السيدة الأولى الأمينة على الأمانة ،وأنت العالم وإن اختلف العالم عليك ، فأنت السيدة الأولى الأمينة على الأمانة ، وأنت الأمل والهدف والغاية .. لولاك لما كان شئ يرتجى، ومواقفك لا تعد وستظلين فى وجداننا وأعماقنا .. ما قلت "لا" قط إلا فى تشهدك، شيمة الصالحين ،وسمة الطائعين ،كفعل نساء المختارين، وتجلت فيك كل الرحمات والطيبات من الأعمال ، حتى صرت كالملاك ...يا سيدتى

برحنى الشوق، واستبد بى ، وما حيلتى وكلنا للأقدار مشدود..أهو الإنذار بالفراق يوم تبلغ الحلقوم ؟ ما عاد أمل فى النجاة، من حياة بلا شطان ، والناس غفل كلما مر بهم زمان لا يدرون هذا المصير البين للعيان، كم كنت واهما وأنا أحلم بالنقاء، بالصفاء، بالإيمان بالورع بالتقى والإحسان .. وهما يشدوهما مع الأيام حتى صرت فى الخيال ، وهكذا يصبح الواقع خيالاً..

أرأيت إلى انعكاسات المشاهد والرؤى ، وانكسارات النظريات والقوانين وكل ما تردد على ألسنة العباقرة والمكتشفين ، وسلمت بالواقع فهو خيال ولكنى بها وراءه إن كان له وراء.

لم لم أصاحبك وتصاحبينى هذه المرة؟ وقد كنا نتنقل هنا وهناك، صباح مساء دون ما انفصال. لابد أن شيئا قد أختل، وأن ناموسا قد أصبح متعطلا، وتلك مؤشرات الأنبياء حين يصبح الواقع خيالا، ويتعطل ناموس من نواميس الكون ليدلك على أمر لايقوى عليه بنو آدم، حتى إبليس الذى شذ عن الناموس لم يستطع أن يبقى كما كان من الجن.. لايشتاق إلا لغائب، وأنت لاتغيبين عنى، فأنت معى أينما كنت فى الليل عند الرقاد طيفك لاينثنى عن مضجعى، فلا استريح من نار تملأ أضلعى نارا، وتأجج عظاما وهنت من طول فراق، حتى أسمع صوت المؤذن أو هكذا يخيل لى لأسابق

الصباح، وما هو من الليل بأمثل.. وغدا تأتلف الجنة أزهـارا وأنهـارا، نحيـا ويزول الخسوف وراء الأفق حيث لا مغيب ولا نهاية.

من استطاع الباءة فليتزوج والاستطاعة لها تفسيرات شتى ومعان متعددة، والزواج مشروع يعرفه كل من شب على الأرض أو تنقل من زمن إلى زمن ومن مرحلة إلى مرحلة، حتى يكون الزواج فى مرحلة من هذه المرحلة، والإنسان فى هذه المراحل يبدأ تعليمه ودراسته منذ الصغر ويتمها بعد سنوات ليبحث عن عمل ثم يرتبط بشريكة حياته، ثم يهب الله من يشاء ذرية يرجى لها أن تكون طيبة، ويجعل من يشاء عقيماً.

ولو أحجم الإنسان عن الزواج ماذا كان يكون لو لم تتكون العلاقة الزوجية؟ أتخلو الحياة من البشرية وما قيمة الحياة إذن بدون هذه البشرية وتشاء إرادة الله أن يتزاوج كل شيء فى هذا الكون ويكون من هذا التزاوج ما يسخر من بعضه للبعض الآخر وما يخدم بعضه للبعض الآخر وهكذا.

وتأتى قضية الميراث كنتيجة للعمل والزواج وحب التملك والإنشغال بالمال والولد ويضع القرآن الكريم الأسس لهذا الميراث وتنظيمه، وتقسيمه بين من لهم حق فيه.

ويترك الناس ما شرع لهم الله فى هذا الميدان، فيتحايلون كل بحيلة على تقسيم هذا الميراث بطرق غير مشروعة ترضى رغباتهم ، وتضمن لهم

عدم تسرب شيء من الميراث خارج محيط دائرته هـو خاصـة عنـدما تكـون ذريته بنات، أو يكون بلا ذرية.

قد يُحدث الميراث خلافا، وهو لابد واقع بل قـد يـؤدى إلى الـشجار وإلى المشاحنات والتشابك واللجوء إلى استخدام وسائل لاتليق بالإنـسانيـة، ولا يعد أصحابها من بنى آدم.

لو أنفق الناس من أموالهم فى وجوه الخير: وأخـذ هـذا مـن ذاك، ولم يحرم أحد من حق الحياة، وفى هذه الأموال متـسع للجميـع عـلى أن يكونـوا أسوياء، ولا حاجة لنا فى القضاء ليحكم بين الناس فحكم الله قد سبق، وقد أمر بالإنفاق على كل من له صلة ببنى البشر، وأن نخرج من الأموال مـا فيـه متسع للجميع.

ولو جمعت الزكاة ووزعت على مستحقيها، ما وجدت عـلى الأرض من يشكو الفاقة.

(٢٨)

تمتلك المرأة قوتين عظيمتين هما الذكاء والجمال، ويظن الناس أن المرأة فى العصور القديمة وطبقاً لبعض الأعراف والتقاليد البالية كن يحتللن مكانة دونية فى المجتمع.

وإن كانت المرأة مرت ببعض المعاناة عبر الحضارات، إلا أنها تبقى متربعة على عرش الجمال والذكاء ومعاناة المرأة عبر التاريخ بدأت من الحضارة البابلية لخصها المؤرخ هيرودوت، فى سرده لتقليد معين كان يتبعه الرجال فى الأزمات والحروب، وهو خنق الزوجة حتى الموت، حتى لاتستهلك الطعام الموجود فى المنزل.

والنساء كن خاضعات ذليلات فى الحضارة الهندية، سواء كانت بنتا أو زوجة، كما لخصت حال النساء فى الحضارة الصينية فتاة صينية فى رسالة مشهورة عندما قالت (نشغل نحن النساء آخر مكان فى الجنس البشرى).

أما النساء فى الحضارة اليونانية، فكان لهن طابع فريد، فكان الزواج يتم عن طريق الشراء أو المقايضة، بعدد من الأساور.

كما حرمت المرأة فى الحضارة الرومانية من حقوقها المدنية، فإذا مات الزوج لاترثه، أما إذا ماتت هى فللزوج كل ماتملكه.

والحضارة اليهودية نظرت إلى الأسرة على أنها نظام اقتصادى وسياسى، وليس نظاما اجتماعيا.

ومع بزوغ فجر الإسلام، تبددت الظلمات إلى النور وأعطى القرآن الكريم والسنة النبوية مكانا محترما للمرأة، فالمجتمع الصالح لاتستوى فيه الحياة دون إنصاف المرأة كما أرسى الإسلام قواعد الحياة الزوجية السليمة وكيفية تربية الأبناء على البر والتقوى كما كفل الإسلام للمرأة حقها فى الميراث ومكانتها فى المجتمع وأحقيتها فى المشاركة من أجل الوطن.

وقبل العصر الإسلامى بمائة وخمسين عاماً، تكشف الدراسة فى الشعر الجاهلى عن مكانة المرأة فى ذلك العصر، وأنها لم تكن ممتهنة أو متدنية، فقد حظيت باهتمام الشعراء، وجعلوا يصفونها بأنها سبب الخصب والنماء فى هذه الفترة، وهى الملهمة لهم فيما قدموه من أشعار، وأن هذه الأشعار كانت تعلق على أستار الكعبة لنفاستها، ولأثرها فى المجتمع الذى يعيشون فيه، وكانت تقام أسواق للكلمة من مثل سوق عكاظ، والمربد والمجن، يتبارى فيها الشعراء فيما بينهم، ولكل مريدوه.

وفى العصر الحديث نجد المرأة قد حققت تقدما فى كل الميادين، وأصبحت تشارك فى كل الأمور فهى فى الوزارات والمصالح والهيئات، لأن منهن المحامية والمهندسة والطبيبة والباحثة والمدرسة، وغير ذلك من المهن المختلفة، ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، بل رأيناها فى القضاء، وأيضاً دخلت البرلمان، وصار لها مقاعد عدة فيه.. ولم يقتصر ذلك فى دولة بعينها بل كان فى كثير من الدول العربية، مثلهم فى ذلك كمثل الدول الأوربية.

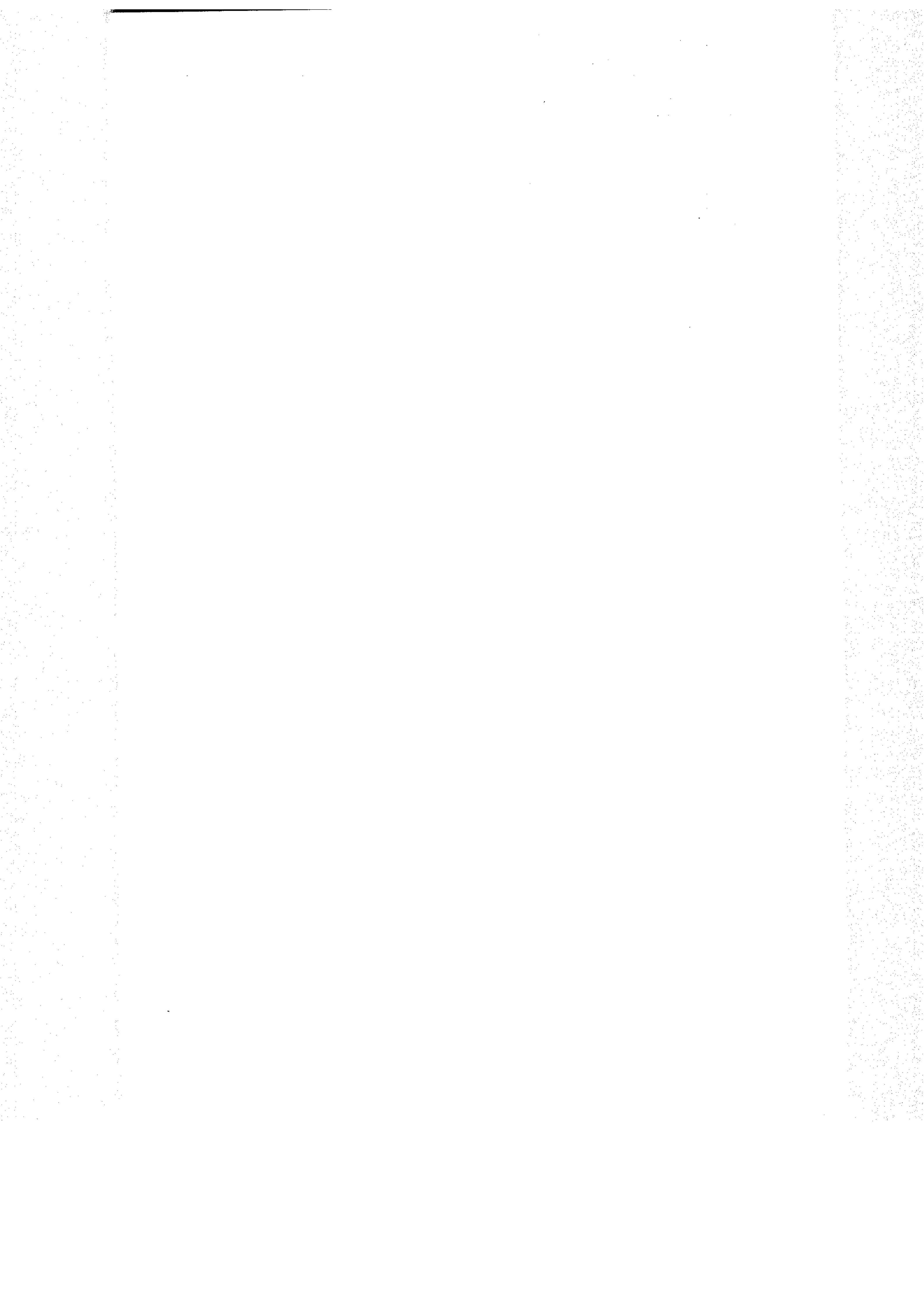
وهناك جمعيات أسست للمرأة تنادى بحقوقها وبتمثيلها فى المؤتمرات والندوات واللقاءات وفى اتخاذ القرار، وهى جديرة بذلك، وسوف تحقق ما لم يحققه الرجال، وستنهض بهن الأمم والشعوب والأوطان، وستبذل فى سبيل ذلك الوقت والجهد اللذان يمكنان لها إحراز التقدم والنصر فى مكانها وفى مجالها.

والمرأة بذلك وبهذا الذى وصلت إليه، سوف لن يجد الشعراء والأدباء مايدفعهم لنظم الأشعار فيهن، أوتناولهن فى قصصهم ورواياتهم، اللهم إن كان تناولهم فيهن حول وظائفهن، وفى ذلك ضياع للإبداع.

كلمات

- لكل واحد حبيب يتركه ساعة يموت إلا عمله.
- الكوب ليس لـه عـروة، والإبريـق لـه يـد وعـروة، والكأس يكون ممتلئا.
- الروح لاتحدد لها مكان، وكذلك الله.
- نُزل: المكان المعد للضيف لنزوله.
- اللغة ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم.
- واحد ليس معه فـرد آخـر، أحـد لاتركيـب فى ذاتـه ليس مركبا من أجزاء.
- صاحب الدعوى أحق بها ما لم يوجد معارض.
- شكاه فأشكاه (أزال شكواه).
- حسنات الأبرار سيئات المقربين.
- أتشتاق لربك قال: لا، إنما يشتاق لغائب.
- العتاب بالأحبة أخلق وأليق.
- الكفل: النصيب.
- الإسلام جاء بالعتق وما جاء بالرق.
- المعتر الذى يتعرض إليك ولا يسألك.

- القانع الذى يقنع بما أعطى ولا يسأل.
- إذا كلت القلوب عميت.
- القوة اثنان: السيف والقلم، فأما السيف فإلى حين، وأما القلم فإلى كل حين.
- انتهى عصر القلم وبدأ عصر القدم.
- مثلما ودعت تلاقى.
- سلافة: كل شىء عصرته أوّله.
- العارية عمل من أعمال البر التى رغب فيها الإسلام.



الموهبة صفة اختص بها الله نفرا من عباده، منهم من اصطفى واختار وفضل ليؤدوا رسالته، وينشروا دعوته، ويذكروه ويسبحوه بكرة وأصيلا. ومنهم من امتحنهم الله بهذه الصفة ، فيسخرها البعض لأغراض مفيدة للفرد والمجتمع، وقد يسيء البعض استخدامها، فتكون عاقبتها وخيمة، وإذا نظرنا إلى هذه الصفة وجدناها فيمن حولنا ممن نتعامل معهم، وممن نلتقى بهم فى كل عصر ، ونسمع بهم فى مختلف الأزمنة، فإذا عدنا إلى القديم منذ العصر الجاهلى، رأينا شعرا وسوقا للشعر يتبارى فيه أصحابه بقصائدهم وأشعارهم، هؤلاء وهبهم الله القدرة على استخدام اللغة استخداما تصويريا بديعا، نتناوله بالشرح والدراسة حتى يومنا هذا، ونعود إليه عندما نحتاج إلى الجذور، ودائماً نحن فى حاجة إليها، وهكذا كان العصر الجاهلى بمن فيه من شعراء المعلقات وغيرهم مثل النابغة وامرؤ القيس ولبيد وطرفة بن العبد وعمرو بن كلثوم وغيرهم على قدر عميق من الثراء اللغوى ومن الفن الشعرى ومن الحكمة التى ضمنتها أشعارهم.

وإذا رجعنا إلى العصور التى سبقت هذا العصر طالعنا كوكبة الرسل والأنبياء التى أرسلها الله إلى أقوامهم لينذرونهم ويبشرونهم: موسى وعيسى وإبراهيم الخليل، ومن أرسل قبلهم، وجاء بعدهم حتى ابن عبد الله محمد ﷺ وهم يعدون بالمئات رأيناهم رزقوا موهبة فذة، والله اختارهم واصطفاهم، وفضلهم على غيرهم ووهبهم هذه الصفة التى تميزهم عن غيرهم وتفضلهم عنهم فاستطاعوا عن طريق هذه الموهبة الإلهية أن يؤدوا

رسالتهم التى وكلت إليهم، وأخذوا يعلنونها فى أقوامهم فمنهم من كذب ومن من آمن، وقد صبروا على الإيذاء فى سبيل دعوتهم، وفى سبيل نشر ثوابت الديانات حتى كان العصر الإسلامى، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً، وشهدوا بالله وبرسوله.

وحين نقف على عصرنا الحديث، ونبحث عن الموهبة، وعن الذين أفاء عليهم الله بها نجدهم فى كل مجال مميزين عن غيرهم بما أنعم الله عليهم من هذه الموهبة فمثلا من الرجال الموهبين فى مجال الشعر أحمد شوقى وحافظ ابراهيم، وأحمد رامى ومرسى جميل عزيز، وبيرم التونسى، وعبد الفتاح مصطفى وكامل الشناوى وسيد حجاب ونزار قبانى وغيرهم، هؤلاء كانت لهم الموهبة فى هذا المجال دون غيرهم ممن لهم موهبة فى مجال آخر من أمثال رياض السنباطى وزكريا أحمد ومحمد القصبجى ومحمود الشريف وبليغ حمدى وسيد مكاوى ومحمد الموجى وكمال الطويل فى الموسيقى والتلحين، فإذا وصلنا إلى الغناء، كان محمد عبد الوهاب وأم كلثوم وفريد الأطرش وعبد الحليم حافظ وفيروز واسمهان وفايزة أحمد ونجاة الصغيرة وعبده السروجى ومحمد قنديل وعبد العزيز محمود وكارم محمود عبد الغنى السيد وصالح عبد الحى ممثلين عن الموهبة فى هذا الميدان .. وهكذا تتعدد المواهب وتختلف من شخص لآخر ومن مجال لآخر، وقد تتعدد المواهب فيجمع الواحد بين موهبتين أو يزيد، وهى فى كل الأحوال موهبة.

ونجد الموهبة عند الأدباء والكتاب أمثال طه حسين، العقاد، توفيق الحكيم، عبد القادر المازنى، أحمد لطفى السيد، مصطفى صادق الرافعى،

يحيى حقى، نجيب محفوظ، يوسف إدريس، يوسف السباعى، محمد عبد الحليم عبد الله، محمود أمين العالم، خيرى شلبى ... وغيرهم.. موهبة فى القصة والرواية والمقال والأدب لم تعط لغيرهم حتى المحبين لهذه الألوان وكما وجدنا الموهبة فى الشعر والآدب والكتابة ، نجدها أيضا فى الرسم والتصوير والنحت ، ونجدها فى الصناعة والزراعة ونجدها حيث يلتقى إنسان بإنسان.

وعندنا فى تلاوة القرآن الكريم: محمد رفعت، أبو العينين شعيشع، المنشاوى، البهتيمى، الصيفى، على محمود، عبد الفتاح الشفشاعى، عبد الباسط عبد الصمد، راغب مصطفى غلوش، محمود على البنا ، منصور الشامى الدمنهورى، محمد محمود الطبلاوى، مصطفى اسماعيل عبد العظيم زاهر والساحة مليئة بأمثال هؤلاء الموهوبين، فقد من الله عليهم بصوت جميل وقدرة على التلاوة الجيدة الحسنة، وإنك لترى موهبة الصوت فى هؤلاء المقرئين، كما تراها فى صوت المطربين، هو صوت فى الطبيعة مرة يحمل لك الروحانية فى سماع القرآن الكريم، ومرة تروح به عن قلبك فى غير إسراف فى سماع، وإذا تحدثنا عن الموهبة فى مجال التمثيل يطالعنا العمالقة زكى رستم وسراج منير ونجيب الريحانى وبديع خيرى وحسين رياض وعلى الكسار ومحمود المليجى وعماد حمدى وفاتن حمامة واسماعيل يس وشكوكو وغيرهم ممن عرفتهم الشاشة وعرفهم المسرح.

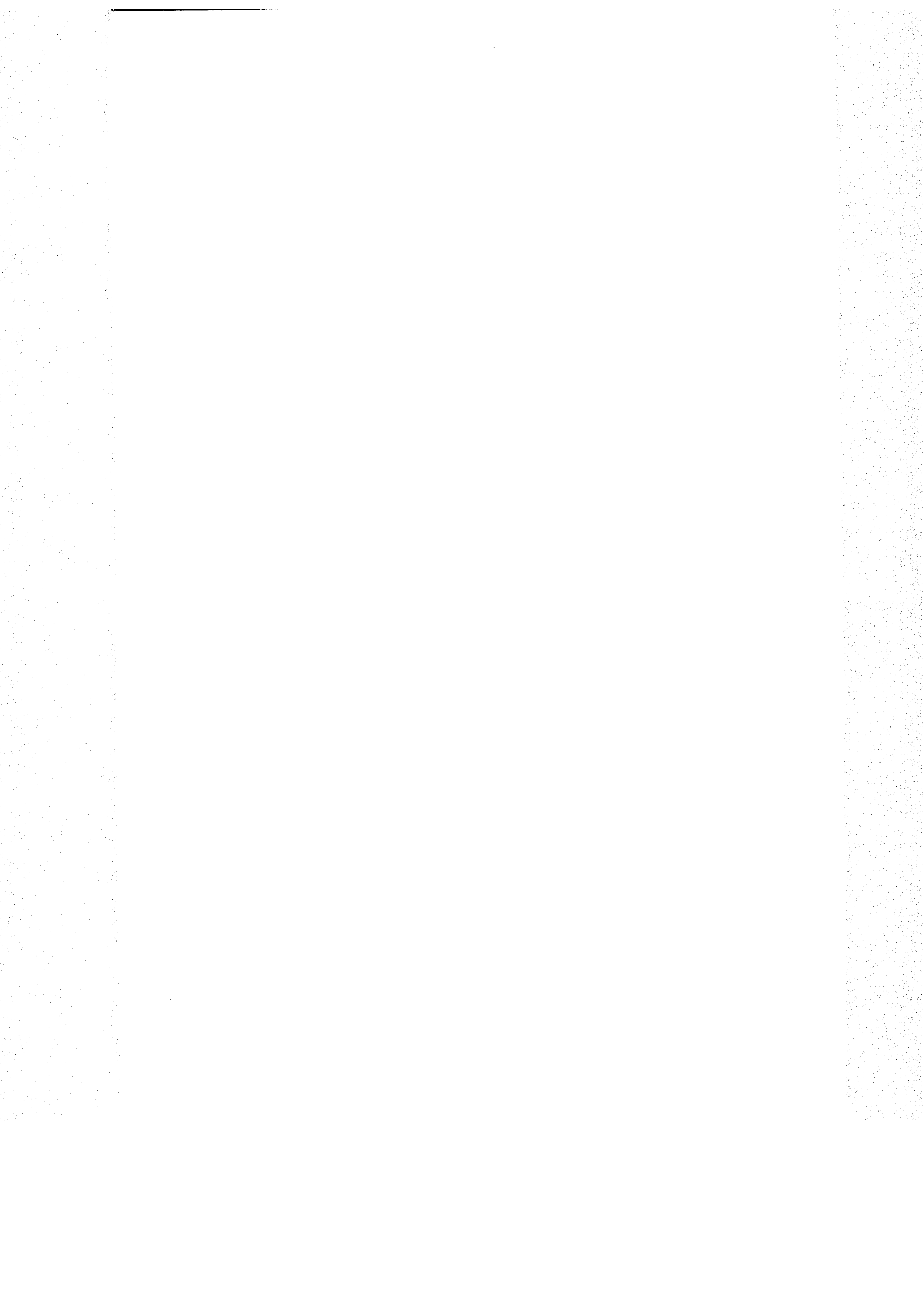
وهكذا تكون الموهبة عن أشخاص كان حظهم أن تكون لهم هذه الموهبة وهى تختلف بإختلاف المجال الذى يعمل فيه الإنسان.

وفى مجال الصحافة والكتاب أسماء وهبها الله الموهبة فبرعت فى أداء وظيفتهم وقدموا لنا إبداعاتهم التى نعيشها فى كل وقت ومع كل حدث وخبر، وكذلك تطالعنا أسماء الموهوبين فى الرياضة على مختلف أنواعها من كرة القدم والسلة والطائرة والتنس وتنس الطاولة وألعاب القوى والجمباز وغير ذلك من فنون الرياضة مما نعدهم من المحترفين ومن المختصين فى هذه الأنواع أما موهبة الشرح والتفسير والتحليل لما تسمع من القرآن الكريم فعند كثيرين كالشيخ محمد متولى الشعراوى، البهى الخولى، عبد العزيز كامل، محمد بن فتح الله بدران، محمود شلتوت، الشرباصى الباقورى، ابراهيم سلامة وهؤلاء وغيرهم قد أفاض الله عليهم من نوره وأراد بهم خيرا ففقههم فى الدين.

وقد تصادف واحدا ذا موهبة فى عمله فيتقنه، فيكون له خير فى الدنيا والآخرة، وتجد آخر لايقدم ولا يؤخر، ويؤثر الكسل على الهمة والنشاط، فتعرف الفرق بين الأبيض والأسود، وفى مجال الإعلام نجد من الإذاعيين القدماء محمد فتحى وجلال معوض وحسنى الحديدى وعبد الوهاب يوسف وهمت مصطفى وآمال فهمى، وسناء منصور، وسامية صادق وتماضر توفيق، وغيرهم حباهم الله ذهنا متقداً متوهجاً وبديهة سريعة وقدرة على الوصف والاسترسال ونقل الصور والمشاهد نقلا حيا.

وإنك لتعرف قيمة الموهبة عند السمع بمن نال جائزة نوبل للسلام كالزعيم السادات والعالم أحمد زويل والأديب نجيب محفوظ وهؤلاء صور تفخر بها البلاد وتشرف بها الأمم والشعوب، ونماذج حية لأبنائنا وشعبنا وهكذا ترى أن الموهبة شىء لا دخل لك فيه، إنما هى كالوحى يختص به الله

من يشاء من عباده، والموهبة غير الذكاء، فالناس جميعا يخلقون على ذكاء واحد، ثم ينمى هذا الذكاء مع مر السنين فمنهم من يحقق ذكاء عاليا ومنهم من يكون له ذكاء متوسط وآخر ذكاؤه دون ذلك، فالذكاء تحقق به الإتقان فى العمل والابتكار فى ميدانك، وقد يتساوى فيه الكثيرون، أما الموهبة فهى هبة من الله تحقق بها مجدا فى حياتك وتصبح علامة من علامات الوطن، وعادة ما تكون عند الموهوبين نسبة ذكاء مرتفعة.



الصلاة ركن أساسى من أركان الإسلام وهى عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين

إن الصلاه كانت على المؤمنين كتابا موقوتا والصلاة فى المساجد أمر إلهى

إنما يعمر المساجد من آمن بالله واليوم الآخر، وترى الناس يهرعون إلى الصلاة مع سماع الأذان وتمتلىء ساحات المساجد بالمصلين بل وفى الخلاء حيث يستحب الصلاة فيها فى المناسبات ويتألف هؤلاء المصلون من المسلمين على اختلاف أنسابهم وأحسابهم وأعمالهم ووظائفهم فإذا انتهوا من صلاتهم انتشروا فى الأرض يبغون من فضل الله، فيرزق الله كلا من عملهم التاجر يرزقه من تجارته والصانع كذلك والعامل أيضا والموظف من وظيفته والإنسان فى كل مكان يلتقى فيه ويعمل به ومعروف يقينا أن هذا خلق الله وعلى الله رزقه، والناس تتسابق من أجل هذا الرزق وهو مكفول لهم فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون، ولكن لابد من السعى ليتحقق قول الله عز وجل فإذا كان الله قد كفل للناس أرزاقهم، وسخر بعضهم لبعض من أجل الرزق، فلم هذا الصراع والجشع، والجرى وراء المكتوب لك، ظنا للبعض أنه من الممكن أن يجمع أكبر قدر من المال فى أقل وقت ممكن فيكر ويفر، ويركض للحصول على غنيمة ونسى أن مالك سوف يأتيك، وأن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى.

ثم إن هؤلاء الذين عمروا المساجد بذكر الله وبالصلوات هم أنفسهم الذين نلتقى بهم فى الطريق وفى الشارع وفى المكاتب وفى المصالح المختلفة ونلقى منهم سلوكاً لايتفق مع صلاتهم فالغش واقع، والرشوة جانحة، والسرقة قائمة والظلم بين واضح، والفساد فى كل شىء تصطدم به، هذا الذى يسلبنى حقى والذى يظلمنى والذى يمنع عنى ما أريده بحق، والذى يعطل مصالحى، والذى يكلفنى فوق ما أطيق، والذى يغشنى فى بضاعته وسلعته، والذى يؤذينى فى الطريق ، والذى يتشجار مع زميله من أجل مصلحته وهما، والذى يقتل ولده، أو يقتله ولده، والأم تلقى بطفلها فى الشارع بجوار منزل أو ملجأ والقتال الدائر فى كل مكان من أجل لاشىء.

أليس هؤلاء هم الذين يصلون أو بعضهم نسوا أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ومن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له، نسوا أن الصلاة سلوك وأن الأخلاق مرجعها للقرآن، وأن الأمة إذا اجتمعت على صلة الله ووصلت رباطه كانت أمة مشرقة، وإذا اجتمعت على الفسق والفجور كانت على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لايهدى القوم الظالمين، ولا يزال اجتماعهم الذى اجتمعوا عليه ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم.

افيقوا وعودوا إلى رشدكم، واعتنقوا ثوابت دينكم، وصلوا من أجل الصلاة، ومن أجل أن يتقبل الله منكم صالح الأعمال ومن أجل أن يتوب عليكم ومن أجل أن تحسنوا أعمالكم وتكونوا فى عون الله حتى يكون الله فى عونكم ولن يسعد بالخير كله فى الحياة الدنيا والآخرة إلا من اتقى الله

ورعاه والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه، وعلموا أولادكم الصلاة على المنهج المستقيم ليشبوا رعاة حماة لأوطانهم، متمسكين بالحب والعدل والبعد عن الجور والظلم، وليكون البناء قوياً على أساس متين، شامخاً يهابه كل من كان فى قلبه زيف أو استحسن الضلال والعمى، قوا أنفسكم نارا بصلاتكم الحقة، وبقرآنكم الكريم، وبشوابتكم الداغمة، تنتصروا وتفوزوا فى الدارين، ولنعم أجر المحسنين.

ونظرة إلى دور العبادة والمساجد فلابد أن نعمل على نظافتها وعلى قدسيتها فلا تتخذ منها مكانا للتجمع والتسلية إن هى إلا تجمع للصلوات وذكر الله وأن نشعر بأن هذا البيت هو بيت الله ومن ثم وجب الخشية فيه لا أن نعبث به أو نسرق منه أحذية المصلين وأغراضهم ومتعلقاتهم ، يجب أن تكون هناك رقابة ، رقابة على كل شىء وتوجيه صحيح لكل شىء حتى نكون آمنين مطمئنين ومن دخله كان آمنا.

(٣١)

الركن الثالث فى الإسلام الزكاة، من أخرجها فقد كفل للمسلمين حاجاتهم، وقد حث عليها القرآن الكريم، وأمر بها فى أكثر من موضع لما لها من أهمية فى بناء الإسلام "الذين هم للزكاة فاعلون"، فالسعى لها فلاح وهو الفوز العظيم، وهى تختلف باختلاف النشاط، ولابد من أن نخطط لعملنا طبقاً للزكاة، فإن أحسنا ذلك حسن عملنا، وأخرجنا زكاتنا وصدقاتنا فى مصارفها التى فرضها الله علينا وكتبها لنا فى قوله تعالى (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) هذه الآية من سورة التوبة ورقمها ستون، تعلن عن المصارف الثمانية، ولا أظن أن هناك من يحتاج لمصرف غيرها، فلو أننا طبقنا هذه الفريضة، لما كان هناك من يشكو العوز.

والنقود ثروة خفية، وهى الآن الأكثر ظهورا، وفى أيد كثيرة، وتعد بالمئات والآلاف والملايين والمليارات، ولكن البعض ممن أوتى حظاً موفوراً منها ينفقونها فى وجوه المتعة والشهوات وفى حب النساء والعبث والفساد (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المثاب) هكذا يبين الله تعالى لنا فى سورة آل عمران الآية الرابعة عشرة وجوه الزينة لبعض الذين ملكوا نقودا طائلة، فانساقوا وراء رغباتهم ووراء أهوائهم، وظهر الزواج الباطل بأنواعه وهو (زنى) ورأينا

من يقتل من أجل امرأة، ومن يدفع الملايين من أجل السهرات والمجون والفسق ويأخذهم الغرور والصلف لفعل كل الجرائم والموبيقات، غير عابئين بغضب الله ولا بحكم قضاء حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون فيسألون عما كانوا يفعلون، وما كانوا يعملون ، ولات حين مناص.

ومن الناس من يكنز المال حبا فيه ولا ينفق منها مايسد حاجة المحتاج، وكفاه أن ينعم بها حصنا له فى دنياه، وهؤلاء يقول فيهم الله تبارك وتعالى فى سورة التوبة الآية الرابعة والثلاثون)

(والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم)

(ولا يعبأ هؤلاء وهؤلاء بوعيد الله، وإن عذاب ربك لواقع ماله من دافع) وسيعلم أولئك معنى الندم وأن مصيرهم إلى الله يفعل بهم مايشاء وما يريد.

ولو أن الناس ثابوا إلى رشدهم، وأنفقوا من أموالهم فى وجوه الخير، لما كانت هناك بطالة، وما كان هناك فقر، وما كان هناك خلاف وشجار مصيره إلى القضاء، وما أعظم عدل السماء.

الله ضمن لخلقه الرزق والعيش الكريم، وكفل لهم حاجاتهم، ومن أجل ذلك سخر البعض للبعض، وجعل الناس درجات، حتى يكون الكل فى عون الكل، ولا يستغنى أحد عن أحد وهكذا يسير الكون فى انضباط وفى نظام أو هكذا يجب أن يكون عليه البشر، فلا بطالة ولا فقر، ولا أمية بل بنيان يشد بعضه بعضا

كانت رحلة الشيخ إلى الأرض المقدسة بعد دعوة جاءته فى منامه، فأضحى يسأل ربه أن يتم عليه نوره، وأن يبلغه مقصده وأن يلبى هذه الدعوة الإيمانية، وما هى إلا أيام وكان فى المدينة المنورة، وتحققت الدعوة وشرع فى مناسك العمرة، وصلى فى المسجد النبوى، وألقى التحية على سيدنا محمد ﷺ، وعلى صاحبيه أبى بكر الصديق، وعمر بن الخطاب الفاروق، انتابته فرحة المشتاق، ولهفة المحب، وتمتم بكلمات فى الروضة الشريفة بعدما صلى بها، ورجا الله أن يقبل منه حضوره، وأن يمن عليه بما تمنى وهو فى بيت رسول الله ﷺ وأمضى أيامه ولياليه القصار فى رحاب الحبيب المصطفى، ولم يشف وجده فهمّ بالرحيل إلى بيت الله سبحانه وتعالى، إلى حيث الكعبة المشرفة في مكة المكرمة، فطاف بها سبعا بعد نية العمرة، ودعا حول الكعبة وتعلق بأستارها، واقترب من الحجر الأسود وسط الزحام فلمسه، وصلى بمقام ابراهيم وحجر اسماعيل عليهما السلام، ومن تحت البيت المعمور سأل الله أن يجعله مستجاب الدعاء، ثم مضى إلى زمزم حيث أرتوى منها، وأنى له أن يرتوى وهو ظمآن ظمآناً وأصبح من نهاره يمر بالمزارات، ويتخيل مع كل مزار أقواما عاهدوا رسول الله وبايعوه وهو معهم على هذه الرمال الساخنة وتحت وهج الشمس الملهبة، وفوق الجبال الشاهقة، واستعاد تاريخ الأمة الإسلامية، وما كان عليه المسلمون الأوائل والصعاب التى واجهوها فى سبيل نشر دعوتهم، واستقرار رسالتهم، إنها رحلة الصفاء والنقاء من أداها تمنى أن يعود إليها وانتهت

مناسك الشيخ وعاد من حيث بدأ كطبيعة الأشياء فى هذا الكون، رجع طاهراً متطهراً من كل دنس، راغباً وجه الله يختم به مسيرته ليكون اللقاء وزاده حب الصلوات فى مسجد الرسول والمسجد الحرام أن يؤديها فى المساجد ما استطاع حين يرجع وأن تكون صلاة الفجر وترتيل القرآن دستوره فى نهاية الطريق وهكذا منّ الله عليه، واستقام كما أمر.

كان الشيخ يروح عن نفسه ساعة وبينا هو عائد من صلاته عشاء إلى بيته مع هدوء المكان وظلمة الوقت، واقترب من الباب الخارجى ليفتحه داهمته فتاة باسمة وألقت عليه التحية وصافحته وهى تقول: ألا تعرفنى؟ نعم أعرفك، كان فى حيرة وشك، ربما كانت واحدة من الجيران وهو لا يتذكرهن، ربما كانت ضيفة جاءت لزيارة إحداهن .. ربما .. ربما، فأذن لها بالدخول أولاً – كما يسمح الذوق بذلك، وما هى إلا لحظة حتى جذبته إلى الداخل، وفى لمح البصر مدت يدها بقوة إلى جسده النحيل وراودته عن نفسه، وشدته إلى السلم المؤدى للطابق الأول حيث يكون الضوء خافتاً قاومها وأفقدته المفاجأة السيطرة على الموقف فهرول من أعلى السلم بعد أن صعدا إليه، وعاد إلى أسفل ثم أشارت إلى موضع آخر مستتر تحت السلم، فأبى ولكنها احتضنته بقوة، وأصدرت أصواتاً خشى على نفسه منها، ولم يدر كيف تسلل منها لواذا حتى خرج إلى الشارع يكاد يكون مغشياً عليه، واتخذ سبيله إلى زاوية مختفياً عن الأنظار .. ماذا كان يكون لو أن أحدا شاهدهما وقد همت به وهم بها ؟ أو أنه استجاب لتهالكها واستمر معها حتى تقع الجريمة، وبعد فترة عاد واستجمع قواه وذاكرته واسترجع ما فات، وتمثل حال يوسف مع سيدته امرأة العزيز، ولكن الحدث مختلف تماما

.. إن الفتاة كانت فى العشرين أو يزيد قليلاً تراود شيخاً فى الثمانين ينقص قليلاً، أما يوسف فكان فى الخامسة والعشرين على الأرجح وكانت سيدته فى الأربعين وهى السن التى ترجح أن الحادثة وقعت فيها، لأن تصرف المرأة فى الحادثة وما بعدها يشير إلى أنها مكتملة جريئة، مالكة مكيدها،متهالكة كذلك على فتاها، فالمحنتان مختلفتان، فمحنة يوسف أو التجربة التى مر بها يمكن أن تحدث وليس لها تفسير سوى الجنس، أما محنة الشيخ أو تجربته إنما تفسر عن الإنحلال والفساد الذي أصبح عليه الشباب وخاصة الفتيات، فتاة تراود شيخاً عن نفسه هذه علامة من علامات الفجور وتفكك الأسرة واقترابنا من النهاية، أم ماذا يكون وهذه الفتاه من تكون ؟ أهى عصابة أولاد السفلة الذين يتعاطون المنكرات فيؤذون عباد الله أو ربما يكون ابتلاء وامتحانا يثاب المرء عليه، فالمؤمن يثاب رغم أنفه.

إن التجربة التى مر بها يوسف لم تكن فى مواجهة المراودة، إنما كانت فى حياة يوسف فترة مراهقة كلها فى جو قصر هذه السيدة، ومثل هذه البيئة تسمح بذلك، إنه نهاية موقف طويل من الإغراء بعدما أبى يوسف فى أول الأمر واستعصم، وهو تصدير واقعى صادق لحالة النفس البشرية الصالحة فى المقاومة والضعف ثم الاعتصام بالله فى النهاية والنجاة.

وهكذا نجا الله الشيخ أيضاً، وما كان يوسف سوى بشر، وما كان الشيخ أيضاً ، ولكن يوسف بشر مختار ولم يتجاوز همه الميل النفسى فى لحظة من اللحظات، فلما أن رأى برهان ربه الذى نبض فى ضميره وقلبه بعد لحظة الضعف الطارئة، عاد إلى الاعتصام والتأبى، لكن الشيخ تذكر دعاءه تحت البيت المعمور وأمام الكعبة، رب اجلعنى مستجاب الدعاء، ولقد دعا ربه

وهو فى محنته فاستجاب له ونجاه.

لقد آثر يوسف التخلق بعد ان استفاق، وهى عدت خلفه لتمسك به، وهى ما تزال فى هياجها الحيوانى، تماما كما حدث مع الشيخ، ولكن مع يوسف تقع المفاجأة (وألفيا سيدها لدى الباب) وهنا تبدى المرأة المكتملة، فنجد الجواب على السؤال حاضرا عن المنظر المريب، إنها تتهم الفتى، وكان من الممكن لمن يرى منظر الفتاة مع الشيخ أن يتهم الشيخ أو تتهمه الفتاة، خاصة أن المنظر غير طبيعى، والفرق بين الموقفين أن امرأة يوسف تعشق فهى تخشى عليه، فلم تتطلب عقابه إلا بالشىء المعقول ويجهر يوسف بالحقيقة فى وجه الاتهام الباطل(قال هى راودتنى عن نفسى) وهل يستطيع الشيخ أن يجهر بالحقيقة لو كان قد وجه إليه الاتهام؟ ومن كان سيصدقه؟ وأين الدليل؟

إن أحدا من أهل سيدة يوسف حسم بشهادته فى هذا النزاع (إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين، وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) فأين ومتى أدلى هذا الشاهد بشهادته هذه هل كان مع زوجها وشهد الواقعة، أم أن زوجها استدعاه وعرض عليه الأمر، كما يقع فى مثل هذه الأحوال أن يستدعى الرجل كبيرا من أسرة المرأة ويطلعه على ما رأى هذا وذاك جائز.

(إن كيدكن عظيم .. من يشهد للشيخ ومن يبرئه من هذا المشهد؟ إنه الله الذى يعلم سركم ونجواكم، ويسدل الستار على المشهد وما فيه (مشهد يوسف مع امرأة العزيز، ومشهد الشيخ مع الفتاة) وتمضى الأمور فى

طريقها

امرأة العزيز تفتتن بفتاها، والفتاة ... بشيخها.

نزوة أنثوية جاهزة مكشوفة .. إصرار

دعاء لله فيستجيب الله ويصرف عنهما كيدهما، إنه هو السميع العليم.

وهكذا اجتازا المحنة بلطف الله ورعايته

نوفمبر

٢٠٠٩م

(٣٣)

إذا كان الله تبارك وتعالى قد كتب القتال على الناس حتى يستتب الحق فى الأرض، ويعرف الخلق أن هذا الكون كله من صنع الله ومن ثم وجب اللجوء إليه والتمسك به، ففريق عرف طريق الحق يقاتل فريقاً زاغ عن الحق ولن يكون القتال إلا على الذين بدأوا بالعداء، وهاجموا الحق فى الأرض والقتال مع هذا مكروه، غير أنه فرض ليكون فى سبيل الله، ومن قتل فى سبيل الله فهو شهيد وهو حى عند الله يرزق.

أما وقد انتهت عصور القتال من أجل غايات حرص الأسوياء على تحقيقها، فإنه من العنف أن نستمر فى مزاولته حتى اليوم فلا حاجة لنا اليوم ان نقاتل من أجل شىء، فالحق قد صار معلوماً وأصبح واضحاً فمن شاء هدى إليه ومن شاء انحرف عنه ولن يتركه إلا من عصى الله وبعد عنه وإذا كان كل عصر تظهر فيه أعداء للشعوب والأمم والأوطان فلم لايكون الحوار سبيلا للوصول إلى حل النزاعات والخلافات خاصة وقد علمنا عدم جدوى الحروب فهى لا تخلف إلا الدمار والهلاك والفناء، ويقتل فيها الأطفال والشيوخ والنساء ولا يكون إلا الندم على ما أقدم عليه الفريقان.

لا أتصور نفسا تقتل نفسا غيرها، ولا أتصور إزهاق الأرواح من البشر لغيرهم لم يصرع المرء بيد غيره، ولم السباق فى إعداد الأسلحة والمبيدات العسكرية، وإذا كان القرآن الكريم قد قال وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل فقد صدق فى عهود كانت فى الجاهلية،

وكان لابد من أن تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فـأعملوا عـلى الـصلح بيـنهما، القتل شىء مخيف مفزع، صحيح أنه حدث منـذ بدايـة نـشأة البـشرية، ربـما ليكون نواة لما أمر به بعد ذلك من الجهاد والموت فى سـبيل الله ثـم إن القتـل عرف قبل نشأة الإنسان على الأرض، فقد عرفته الملائكة حـين كانـت الجـن تتقاتل فيما بينها، ويقتل بعضهم بعضا، ويسفكون الـدماء، كـل ذلـك شـهد عليه القرآن الكريم حين قال: وإذ قال ربك للملائكة أنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمـدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون.

وكان القتل وعُرف القتال، أما وأننا خلفاء الله فى الأرض، فقدخلقنا لنعمر الأرض، ولنعمل من أجـل إسـعاد البـشرية، ونـشر العـدل فى ربـوع المعمورة.

وهكذا تكمن أسرار الحياة ويعم الأمن والأمان، ويسود الخير وتحيـا الأمم والشعوب فى هناء ونعيم فلا قتل ولا سباق وراء أسلحة الـدمار، بـل سباق وراء ما يسعد البشرية ولتنفق الأموال الطائلة على الخير للنـاس كافـة ولتبذل الجهود المضنية فى سبيل تحقيق غايات البشرية السامية ولذا ينعم كـل من على الأرض ويهنأ فى أمن وأمـان ليعـبر خـلال مـشوراه إلى عـالم النجـاة وتكون سنوات عمره التى عاشها مثمرة، فيلقـى بعـدها الله بـنفس راضـية، ويدخل فى رحمته ويدخل جنته.

تنفس الصبح، وأزال عن الليل وشاحه، وتذكر رفيقى الشارع الطويل الممتد الذى أخذ يقطعه ليودع حبيبا غاليا طالما عاش فى حنانه وحماه، وما أن اقترب بخطواته الوئيدة نحو المكان الذى تعود أن يرتاده صفوا رائقا حتى أوقفه شيء غير عادى، كراسى مصطفة وحركة واجمة وعيون زائغة، جلس كالآخرين حتى يأتيه اليقين،، قال رفيقى لمن يحاوره: أرى آلة حدباء فى انتظار ضيف جديد، لم يسمع لسؤاله إجابه وظل يرقب الوجوه، وأفاق على المشهد الرهيب، وتبين الحقيقة بلا مراء وتذكر من قال

كل بنى آدم وإن طالت سلامته　　　يوما على آلة حدباء محمول

لقد حملت على هذه الآلة، لا تسمع ولا ترى إلا وقع أقدام، وحركة أيد، وأكتاف تنوء بها تحمل، حتى تضع الأكتاف أحمالها، وتتلى الترتيلات، وتؤدى الصلوات، وتوجه الدعوات، وتسكن الأحداث، وتتوقف الأزمان.

وعاد رفيقى إلى ذكرى الماضى الذى استراح ولن يعود، وأخذ يطرق خاشعا أمام عواصف القدر، مسلما مستسلما لما يمكن أن يلحقه بمثل ما ودع، ولم يجد سوى هذه الكلمات التى خطها قلم إلى الحظ الذى شاء لحين أن يرقد ويستريح من عناء الحياة فى ضجعة يحن إليها متسللاً من هذه الغربة التى أصبحت تكتنفه بعد ضياع كل ما كان يملأ عليه أرجاء نفسه وأقطارها وتمضى الأيام وفى كل ساعة يدفعه الشوق فيرتدى ثيابه ويمضى قاصداً نفس

الطريق، وماهى إلا لحظات حتى يفيق ويعلم أن الطريق قد خلا من الحبيب، ووقته لم يئن بعد باللقاء الأبدى، فسهمه مرهون بالغيب، وللغيب سره الدفين، فلا حيلة له إذن فيما يريد، ولا شفاء فى زيارة القبور، ذلك العالم المجهول، ولا رضا فى وهم وخيال يرضى لوقت ثم يصبح باهت الألوان كالأمل الشهيد.

ويمضى بخطواته كما كتبت عليه، وكل شىء يفنى بعد هذا الفناء، الذى كان يظنه من المحال حتى نجوم السماء لم تزل، والأديم صحيح، ولم تلفظ الأرض القبور، صحيح أن نفسه قد أبت، وكيف بها يرى وقد قطع الطريق، كل الكائنات أمامه تحيا، وكل حركة تعمل بنواميسها، وإن غابت الشمس فسوف تعود، وتحسسها رفيقى فى ذاتها تملأ جنبات الدنا، عند المغيب، وفى الصبح المنير، وعندما تتجافى الجنوب عن المضاجع، يدعو ربه ويصلى، فيسمع صدى الريح يرجِّع دعاءه فى هذا الفضاء العريض.

قلت يارفيقى: دع عنك هذا، وتعال نعيد تفسير ما نقرأ عن الفناء والحياة فى قديم القصائد وجديدها، وفى كتب السابقين والمحدثين .. قال لى: لم تتغير الأشخاص والأسماء رغم الرحيل، وكأنت الصور والأشكال هى هى تتجدد وتعاد سيرتها الأولى، حتى الأماكن التى أقوت، تعود فى ثوب نضيد، والعين ترنو للقديم حين ترى كل جديد.. فليهنأ من سبقنا إلى عالم الغيب، فتحن منه قريبون، وبقاؤنا لن يطول، وكما جئنا نعود، وسيظل هاتفاً يجذب أذنى ويقول .. عش فإنى قادم ولن تدوم .. قلت: وماذا أنت فاعل الآن يارفيقى؟ قال سأنقل إليك مشوار يومى الجديد، هاك الصباح بعد الفجر السافر، وقد فرغ قلة الأنام من صلواتهم، وانتشروا فى الأرض

بائعو الصحف وجامعو القمامة، والبوابون .. ثم الدكاكين تُفتح أبوابها، وتُقطع المسافات دون غاية أو لغاية، وأنت يارفيقي أين من هؤلاء قلت له قال أقف انتظر الحافلة التى تقلنى إلى مسيرتى، فأراها دون سائق أو رقيب. قلت: وما غايتك؟ قال: أصعد إليها فلا أحد أجده فى المواجهة .. كل المقاعد خالية، أترك مكانى وأهرع إلى الطريق، أنظر من بعيد فلا أرى إلا بيوتا خاوية، ونوافذ محطمة، وأشجارا بلا أوراق، حتى مواكب السيارات لم تعد وركض الأطفال وتوارى المتسولون واختفت الكلاب والقطط العمياء، والجائعون وذوت الزهور وتوقفت الأمواه أمام الناظرين، وأصبح الدخان يخيم على المواقع والأماكن دون رجاء .. ثم ماذا يارفيقى؟ ثم لا ضوضاء أو تلوث، ولا صراع وسط مدينة بلا جدران ولا أسوار، فى عالم بغير أصوات .. حياة بعد موات.

وانقطع صوت الهاتف الذى كان يملأ أسماع المكان، وكان بينى وبين رفيقى فيه حكايات، أصبح بيد مرتعشة وخيم السكون يقطعه الرنين ولا من مجيب حيث كان معى فى الصباح وعند المغيب وما عدت أحب الرنين فهو بكاء الرحيل.

صعد السلم ومعه صاحبه إلى الطابق التاسع فى بناية بـالحى الـشعبى بالإسكندرية، وأدار مفتاح شقة لصديق له كان قد تركه معـه وولجـا المكـان ومعهما غداؤهما، شعر صاحبه باختناق ففتح النوافذ، وتحسس المكـان فعلـم أن كل شىء فيه يدعوك لأن تعود أدراجك، لكنه كان قـد اتفـق مـع الـشيخ على هذا اللقاء ليكمل معه مراجعة دواوينـه الـشعرية قبـل نـشرها، ومكثـا يراجعان.

أعد الشيخ لـصاحبه الغـداء، وتنـاولا طعـامهما .. كانـا لايفترقـان، يجمعهما كل منتدى ثقافى، يغتدوان سويا، ويلتقيان فى مجالس العلماء مساء..

كان صاحب الشيخ يراه فى محراب الناسكين، يعود المساجد، ويحيـى ذكرى أولياء الله، يرتل ماتيسر من الذكر الحكيم آناء الليل وأطراف النهـار، يعرف فضل سورتى البقرة وياسين فيداوم على قراءتهما.

له "حضرة ذكر" كل يوم جمعة مع مريديه، لايحزن على ما فـات، ولا يفرح لما هوآت، فكل شى عنده سواء، ذو قوة وبأس شديد، ومع ذلك مرح صبوح فكه، لايعاف طعاما، ولايشتهى عرضا، يـسعى إلى موائـد الـذكر فى البلاد.

كان يرى أن الاشتباك مع الإبداع، والعالم مـن حولنـا تـشكيلنا كـل لحظة، فتشتبك مع ذواتنا كنوع من فيض حيوية الوجود ومسئوليته.

والشيخ شاعر مجيد، والشاعر لايـشيخ، ولـه فلـسفته حـول شـعره

مفادها أن يكون الملتقى قادرا على الإمساك بتأويل لما يقرأ يتجاوز به حدود النص إلى عالمه الذى يعيش فيه ليتواجد فيه نظر إليه صاحبه قائلا: يبدو أننا سنقضى الليل هنا حتى ننهى ما تواعدنا من أجله، كان يعترف بتفرده معرفة وعلما وثقافة، وثقة بالنفس، وكان يدرك مواهبه وكفاءته، ويدرك أيضا أن وضعه الإجتماعى يفصله عن تحقيق استحقاقه المؤهل له، فمجتمعه يخنق الحرية ويعوقها، وأصحاب المناصب يحاربون أصحاب الكفاءات والناس ينقسمون إلى طبقات متطاحنة، كل شخصية توحد نفسها بمصلحة معينة.

وطغا سحر اللحظة، تأثير اللحظة الحاضرة، فأخرج الشيخ زجاجة كان قد أحضرها معه، وجعل يسكب منها فى كوب ويشرب حتى احمر وجهه، وزاغت عيناه، واستكانت قواه، وتساءل صاحبه عن سطوة المشاعر التى تحكم سلوكه وهو يشرب حتى الثمالة، ولم يعن ماحدث سوى دلالة جرأة الشيخ، فقط تخالط مع ما يشرب، وانسجم وتناغم من دون أن يتبدى منه أنه انهزم، أو فقد حريته، ولم يمتنع أو يوجعه ضميره.

أخذت الشمس تزوى حينا فحينا حتى بلغ الشيخ نهاية ما يحسه من لذة الشراب، وأفرغت الكئوس من كل قطرة مسكرة، وانتابت صاحبه دهشة لم يعرب عنها، وصبر على ما رأى، ولقد رآه على عهده به، واعترته تساؤلات عدة آثر أن يجعلها بين ثنايا أضلعه، فهو فى حيرة من أمره، ثم أخذ يجمع بقايا الطعام فى لفافة ليحملها إلى الخارج عندما ينوى الرحيل.

ويقطع مشهد الشيخ وصاحبه صوت التليفون، إن زوجة صاحب الشيخ تدعوه للعزاء فى فقيد لها فى بلدته التى تبعد عن الإسكندرية ب ٦٠

كيلو متر، إذن لابد أن يسافر لأداء الواجب، ولابد إذن أن يترك الشيخ، وهو الذى وعده بأن يقضى معه الليل، أما الشيخ فقد أذن له بالرحيل، وغادر المكان ، وترك ماوراءه وقطع الطريق إلى بلدته، وكانت الأفكار تملأ رأسه.

وبينا هو متجه إلى سرادق العزاء، يفتح تليفونه المحمول على صوت هزيل ضعيف وبكلمات بطيئة تصل تراكيبها إلى أذنه متقطعة فى لحن كئيب .. مات الشيخ .. مات أى شيخ، من كنت معه آنفا .. كيف ؟ وقد تركته معافا سويا ؟

ثم جاءه اتصال آخر .. أنا ابن الشيخ مات أبى .. قل لى ما الخبر؟ ومرت لحظة صمت أردفت بها كانت من شأن الصاحبين وجعل الصاحب يستغرق فى خواطره، وأدى واجب العزاء، وهمّ بالعودة ولكن الليل قد أطبق ، فأرجأ مشاركة أسرة الشيخ فى مصابها إلى الصباح.

سرت الأبناء أثناء ذلك بأن الشيخ أحس بدوار بعد أن تركه صاحبه، فبادر بالانطلاق إلى حيث أسرته، واستقل سيارة أجرة ودل على منزله وكان قد شعر بهبوط مفاجىء فى الدورة الدموية، وما أن وصلت السيارة إلى مشارف بيته حتى أمر السائق أن يتوجه إلى المستشفى القريبة من منزله، وما أن رآه الطبيب حتى أعلن وفاته، ولم يُجد علم ولا طب ولا دواء.

أعادوه إلى مسكنه وقد فارقت روحه إلى بارئها .. وهكذا أُعيد السر إلى خالقه، كان عبدا أوابا محسنا، ومن عباد الله المؤمنين، ومن المقربين .. لقى الله الذى سخر الأشياء لتحفظ ودائعه، وودائع الله فى روحه، وروح الله

تعود إليه، وتعود النفس المطمئنة وترجع إلى ربها راضية مرضية.

شيء نعرفه وأشياء غابت عنا..

يقال: يُبعث المرء على ما كان عليه .. والشيخ كان على ما كان عليه، وهو العبد الصالح فى مشوار حياته، فهل بعثه سيكون على هذه الصورة ؟ أم أن هناك سرا لاندركه نحن البشر، وأن معنى المقولة الفائتة غير ما يفسره البشر، ويُشيع الشيخ إلى قبره فى مشهد مهيب، تحفه تراتيل القرآن، وتسابيح المسبحين، وابتهالات المكبرين، ودعوات المريدين، عاد الصاحب تراوده أحداث المشهد، واستحضر مشهد سيدنا موسى مع صاحبه ومعلمه الخضر، ولم يصبر على خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، وظن موسى عليه السلام أن فى خرق السفينة جريمة، وفى قتل الغلام جريمة ، وأداء عمل بغير أجر جريمة .. ولكن الواقع كان غير ذلك.

إن الغموض والإبهام أشد أنواع البيان ولو كشف المستور لعلم الإنسان غباوته وجهله، كذلك أخفى الله عن الإنسان كيف يوارى سوأة أخيه، وعلمه لطير يتشاءم الناس منه لغباوته، وقد علم الإنسان ما لم يعلم، وعلم موسى الحقيقة من سيدنا الخضر بسؤاله عما خفى عليه، كذلك لو سأل صاحبنا شيخه عما يفعل، ربما أثلجت الحقيقة صدورنا، ولكن صاحبنا لم يسأل وصبر، وآثر الصمت، وهو يعلم أن عباد الرحمن هم خلق الله، وهم فى رحمته مهما أساؤا.

كلمات

- خير خلف لخير سلف

السلف: ماتقدم والخلف ما يأتى بعدهم

- إذا أردت أن تعرف رجلا من أهل النار: فانظر إلى رجل جالس وحوله ناس قيام
- جدع الحلال أنف الغيرة
- قيمة كل امرىء ما يحسنه (على بن أبى طالب)
- المال عديل الروح
- تُبع: ملك حميرى من ملوك اليمن، كان رجلا صالحا وكفر به قومه فعوقبوا بالسيل العرم
- إن كنت كذوباً فكن ذكورا
- الباطل جندى من جنود الحق، والكفر جندى من جنود الإيمان
- السنة تطلق على السنة المجدبة، والعام يطلق على السنة الخصبة.
- المظروف أنفس من الظرف.
- النجم النبات الذى لا ساق له

- الموت له أجل، ورزقك من الله له أجل
- العزى شجرة أمر الرسول بقطعها
- الوحى إعلام بخفاء
- الإشارة لغة عالمية وكذلك الضحك والبكاء
- زوج فرد معه مثله
- الزمن فرع الحدث
- الجودى جبال عند العراق فى تركيا
- الزوج كالبصمة كل واحد غير الآخر
- الماء العذب مستواه أعلى من المالح
- كل مشرق معه مغرف وكل مغرب معه مشرق

الموت من أصدق الحقائق التى لايشو بها لبس أو ارتياب، والموت لا يعنى الانتهاء أو الفناء أو التلاشى، بل هو صورة أخرى من صور الحياة، ولولا الموت لانطلق الكثيرون سراعا منتحرين يأسا أو فتوطا أو مللا أو سأما أكثر مما ينتحر الكثيرون أيضاً يأسا من الحياة أو أوجاع ومواجع الحياة: سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أب لك يسأم ولو أدرك الإنسان حقيقة رسالته فى الحياه كما أعلنها الله عز وجل فى قوله (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) عبادة على منهج الله، وحتى تستمر حركة الحياة لابد من العمل من أجل العيش، وعلى الإنسان أن يتعقل موقفه من حياته وفى حياته، وحسن فهمه لرسالته، وما دام الإنسان قد وجد فلا بد أن يحيا، وأن يدرك أن الحياه نعمة عظمى من الله الخالق الحكيم، ولابد لنا أن نعمل وأن تكون حياتنا عامرة بالثقة والإيمان واليقين والتعاون والمحبة والسلام والمناصرة، (مالكم لا تناصرون) بعيدة كل البعد عن الطيرة والشك والحيرة والفزع والخوف والتخبط فى متاهات التساؤلات العقيمة فالإنسان هو الحضارة وهو الذى كرمه الله، وأعده ليكون خليفته فى الأرض.

كل بداية لابد أن يكون لها نهاية، والنهاية لا تعنى توقف الحدث وإنما هو توقف للزمن، والزمن فرع الحدث، فمع الزمن تكون الحياة، وما من أحد منا إلا واستوقفه حدث الموت فى صديق أو عزيز لديه، ففكر لوقته فى هذا الأمر الذى لايقدر عليه سوى الذى خلق الموت والحياة، فأخذ يجول ببصره فيمن حوله من الأباطرة والأكاسرة، الجبابرة والطغاة، الملوك

والأمراء، والأغنياء والفقراء، الأحبة والصحاب والرفاق، هؤلاء من كنا معهم فأين السابقون؟

صاح هذه قبورنا تملأ الرحب فأين القبور من عهد عاد؟ ألم يجامل الموت أحدا منهم؟ أهكذا كل الذى فوق التراب تراب؟؟

حقيقة لايدركها إلا العاملون من أجلها.

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

إن الموت مرحلة من مراحل الوجود، وإن كانت غامضة لاندرك حقيقتها، ولا نعرف عنها شيئا، ولكننا نستطيع أن نؤكد أنها مرحلة تليها حياة أكرم من حياتنا هذه وأعمق إحساسا وأرحب آفاقا.

قال أبو حامد الغزالى حجة الإسلام لبعض أصحابه حين أحس بدنو أجله: ائتونى بثوب جديد.. قالوا له: ماذا تريد منه؟ قال أبو حامد: سألقى به الملك، فجاؤه بالثوب، فطلع به إلى بيته، وأبطأ على أصحابه فلم يعد، فذهبوا إليه يستطلعون نبأه فوجدوه ميتا.. وإذا عند رأسه ورقة كتبت فيها هذه الأبيات:

لا تظنوا الموت موتا إنه كحياة وإنه غايات المنى

لاترعكم هجمة الموت فما هى إلا نقلة من ها هنا

هذه الأبيات هى فى نهاية الأمر صورة صحيحة للفكر الدينى عما وراء الموت، وهذه هى الخنساء الشاعرة عندما جاء صوت النعى فى كل ناد يحمل نبأ أبنائها قالت الحمد لله الذى شرفنى باستشهادهم، فلم تجزع، ولم تبد

به ولم يصبح فؤادها فارغا، بل ربط الإيمان على قلبها لعلمها بمكانتهم فى الآخرة، وأنهم فى مقعد صدق عند مليك مقتدر، وهم فى حياة حقيقية عبر عنها القرآن الكريم: (وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون)

ولقد اتفق العلماء – علماء المسلمين – على أن الموت ليس نهاية وإنما هو بداية لطور إنسانى جديد، وليس مايتصورونه بداية فناء.

ومن الناس من يتخذ الموت ذكرا له تعميقاً لإيمانه بالآخرة ونعيمها، وأن الدنيا دار شقاء وعذاب، فالعاقل من يذكر الموت فهو دليل الإيمان، ومن الناس من يجزع ويقلق ويخاف ويفكر حتى يأتيه الأجل وهو غافل عنه، ولن يكسب الخير كله فى الحياه الدنيا والآخرة إلا من اتقى الله ورعاه، وعمل لهذا اللقاء وتذكر أن الله خلق الموت والحياة ليبلونا أينا أحسن عملاً فالموت له أجل، كما أن الحياة لها أجل، والموت مخلوق، والحياة كذلك، خلق الموت والحياة وصدق الله (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور) (الملك ١-٢)

ما به البقاء به الفناء .. وما به الوجود به العدم

الموت سهم أرسل إليك، وعمرك بقدر سفره إليك

لا أخاف الموت .. قالوا الموت قادم، فليقدم ولينفذ ملك الموت أمر موفده، فهو رسوله ليعيد إليه حاجاته.

أى ألم فى هذا ؟ وأى قسوة تلك التى يلصقونها بملك الموت؟ ولماذا أخشى هذا الذى حضر ليرد سرا لصاحبه .. ما نحن إلا موفدون من الذات العلية، إلى الأرض الدونية، وما دمنا موفدين فنحن أطر الرحمن فى هذا الكون العريض.

خلق الله الأرواح، وجعل لها أطرا تسكن فيها، وتحل عليها، نفخة الله، روح الله ثم هذا الجسد الإطار الذى شكله الله فأحسن تشكيله، إطار يليق بروح الذات العلوية.

أنت أيها الكائن على الأرض روح من الله جعل لها مكانا تقر فيه، فكان الجسد هو ذاك المكان، والمكين هو نفخة الله أو روحه، فإذا ما جاء موعد هذه الروح، أرسل ملك الموت فأحضرها وردها لربها، وترك الإطار الذى أصبح خاويا، لا حياة فيه، ولا قيمة له، لقد كان يستمد قيمته مما خصه الله به، وأودعه فيه، فلما ردت الوديعة لصاحبها، عاد كأن لم يكن شيئا مذكورا.

هذا الإطار قد يصيبه الوهن أو الضعف، وقد تمرض فيه جارحة، وقد يفقد شيئاً من مكوناته، فإذا ما انتابه ذلك أحس بالعجز، وعدم القدرة على عمل ما كان يقوم به من قبل، واستدعى من يصلح ما أفسده الدهر،

وقد يصل به الحال إلى اللاحراك، وساعتها لايكون له من أمره مقصدا، وهكذا حتى يمسه الكبر، وتفنى كل عناصره أو بعضها.

أما الروح فتبقى صحيحة سوية لايصيبها شائبة، ولا يعجزها مرض، وتبقى سابحة فى إطارها، حتى يصدر أمر الله تبارك وتعالى، وتعود من حيث جاءت.

مالك أنت والخوف من الموت.. إنه جاء ملكه ليسترد سرا يعود به إلى الحضرة الإلهية، فليأخذها الملك، وليترك الجسد هذا الإطار السماوى حتى يوارى الثرى، ويصبح كما كان ترابا وعظاما.

إن الروح ليست ملكى، فإحساس الشقى أو السعيد راجع إلى هذه الروح، ولست موكلا بهذا الإحساس، أو معنى به إنه خارج دائرتى وأنا أعود لمصادرى الأولى.

وكما أن الروح حلت فى الإطار فى بدء تكوينه أو فى الشهور الأولى، ثم أخذت الخلقة تنمو شيئاً فشيئا وتكتمل وظائفها حتى تبلغ عدتها، وتخرج إلى الأرض لتشارك فى عمارتها، وفى عبادة خالقها، ثم تستوفى رزقها، وتستوفى أجلها، وتحملها الملائكة ثانية إلى مكانها الذى خرجت منه.

الروح شىء عظيم، ترك سرها مجهولا لنظل ندرك عظمة الله، وليضرب بها المثل للناس على عليائه، فإذا كانت الروح لاترى ولا نستطيع أن تعرف كنهها، فكيف تريدون أن تروا الله أو أن تعرفوا كنهه، فهو ليس كمثله شىء ، جل وعلا.

الروح تطلع عندما يموت الإنسان، وطلعة الروح هل رأيتها، وهل شممتها، لمستها، ذقتها ؟ أى وسيلة من وسائل الإدراك لا تدرك الروح، فهل لنا أن ندرك من خلق الروح؟ لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار.

يظن الناس أنه الموت، وما هو إلا مرحلة من مراحل الوجود، وإن كانت غامضة لاندرك حقيقتها، ولانعرف عنها شيئاً ولكننا نستطيع أن نؤكد أنها مرحلة تليها حياة أكرم من حياتنا هذه وأعمق إحساسا وأرحب آفاقا.

وقد اتفق علماء المسلمين على أن الموت ليس نهاية، وإنما هو بداية لطور إنسانى جديد، وليس مايتصورونه بداية فناء.

لقد خلق الله الموت والحياة ليبلونا أينا أحسن عملا.

الدنيا دار فناء، والحياة لهو ولعب، ندخل إليها من باب، ونخرج من الباب الذى يليه، أما الآخرة فهى دار الحيوان والحياة فيها حق وصدق، والإنسان فى الدنيا شقى، لأنه يعيش فيها يجوع ويعرى ويظمأ ويشتهى ويمرض ويتعذب ويخطيء ويأثم ، وماذلك بقائم يوم البعث وحين يأذن الله سبحانه بالعفو والغفران لعباده.

اللهم إن من عبادك من دعاك فاستجبت له، دعاك آدم، فاستجبت، ودعاك نوح، فاستجبت وهديته، ودعاك عبدك داود، ذو الأيد الأواب، فشددت ملكه وآتيته الحكمة وفصل الخطاب، وسخرت له الطير والجبال معه يسبحن، فغفرت له وجعلته خليفة فى الأرض، ووهبت له سليمان وفتنته ثم غفرت له وسخرت له الريح والشياطين.

وناداك أيوب وقد مسه الشيطان بنصب وعذاب ، فركض برجله كما أمرت، هذا مغتسل بارد وشراب، ووهبت له أهله ومثلهم معهم رحمة منك وذكرى لأولى الألباب.

وأخلصت لعبدك ابراهيم، واسحق ويعقوب بخالصة ذكرى الدار وكانوا عندك من المصطفين الأخيار، وكذلك إسماعيل واليسع وذو الكفل، لهم جنات عدن مفتحة لهم الأبواب.

ونذكر يوسف وموسى وهارون، فقد كانوا من المحسنين، فغفرت لهم وزكريا ويحيى وعيس وإلياس وهم من الصالحين، ويونس ولوطا فضلتهم على العالمين.

اللهم إنك استجبت لأحبائك، ودمرت ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يَعرشون، وأهلكت عادا وثمود، وأهلكت الطاغين، فمنهم من أغرقت ومنهم من خسفت به الأرض.

اللهم إنا نتوجه إليك بالدعاء، كما أمرت، فاستجب لنا كما وعدت،

ووعدك الحق، ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة واكتبنا من المحسنين الصالحين، فلا عاصم لنا من أمرك إلا من رحمت.

يارب .. يابر يارحيم، اجعلني مستجاب الدعاء، والدعاء عبادة، فتقبل مني كما تقبلت ممن فضلتهم على العالمين.

أنا بشر، وهم بشر، وهم عبدوك ووحدوك، وكانت دعواهم للتوحيد والعبادة، وأنا أعبدك وأوحدك، وهم سمعوك وأطاعوك، وأنا سمعتك وأطعتك، طاعتي ليست كطاعتهم ، لأنك أحببتهم وعبادتي ليست كعبادتهم، لأنك اخترتهم وفضلتهم وصنعتهم، وليس لى ذنب ألا أختار أو أكن منهم، وأنت سبحانك لاتكلف نفسا إلا وسعها، وهذي وسعي وتلك وسعهم وما رغبت في أن تكون في هذه وسعي، وما كنت لأرفض وسعا كوسعهم، تعطيني إياها، وتمنحني تفضيلك، من أجل ذلك سألتك أن تمنحني الجزاء على ما أفردتني به، فأنت ولى ذلك والقادر عليه، وقادر على أن تمنحني ما تريد.

يارب .. أشكو إليك بثي وحزني وأنت تعلم ما بنفسي ولا أعلم ما بنفسك، إنك أنت علام الغيوب ، يسر لى أمرى وأشرح لى صدرى وهب لى من لدنك نورا وضياء أمشي به، وهيىء لي من أمرى رشداً، واحفظ أبنائي وذريتهم، واعصمهم من الزلل، واجعلهم في رعايتك وعنايتك، ولا تسؤني فيهم، فهم هبتك، وعلى أن أصون الهبة وأن أحافظ عليها، وأن أرشدها إلى الطريق المستقيم، وأن أبصرهم بالأمور، سيئها وصالحها، فكن يارب عونا لنا على صون هباتك وحمايتها من الضلال والفساد وسوء الحال

الذى طغى ووسع اللهم أرزاقنا واقبلنا بقبول حسن ولا تأخذنا إليك إلا ونحن مؤمنون.

وإذا كنت أخطأت فلأنى بشر، علمنى كيف تعفو عنى وتغفر لى، فقد صحوت من غفوتى، واستغفرت لذنبى ومن يستغفر الله يرسل السماء عليه مدرارا، ويجعل له مخرجا، ويكون الخير كل الخير من وراء ذلك.

اللهم إن ما حولى هو منك، وقد أغويتنى، فكانت الهفوات واللمم، وإن لم يكن هذا مرادى، فإن عظمت ذنوبى كثرة، فلقد علمت بأن عفوك أعظم، يارب .. رفعت إليك يدى لأتوب إلى الحق، وإلى الصراط، فكن عونى وكن مددى، اللهم آمين.

قصدت بابه وقلت لن يردنى

وشكوت إليه حاجتى ليمدنى

وعانقت نوره ليكون هداى

ونسيت كل الناس حولى

ناديته من كل موضع بأنات الجريح

فى ليلى على كل جنب طريح

ألقاه يمد حبل النجاة

هيهات لى من أسباب النجاة

فالخطو قد ضاق به المسار

وأعود إلى الإنسان

وأنى للإنسان أن يرقى للسماء

لا لن أكون فى السعير

سأنتظر الوعد الموعود

وأأوب فى حنين للحى القيوم

(٣٩)

رسالة إليك أمى حيث ترقدين، ويستريح الجسد من عناء الحياة فى ضجعة أحن إليها متسللا من هذه الغربة التى تكتنفنى بعد حياة كانت تملأ علىّ كل أرجائى، تدفعنى الرغبة إليك، فأهب من مقعدى أرتدى ثيابى وأتوجه إلى الشارع قاصدا القطار يقلنى إليك، وفى منتصف الطريق أثوب إلى رشدى، وأعرف أن قطاراً واحداً يقلنى إليك، آله حدباء أحمل عليها إلى لحدك هناك فى عالم البرزخ، لكن الوقت لم يئن بعد، فموعدى مرهون بانطلاق سهمى، فالموت سهم يصيب على قدر المسافة بيننا وبينه، وللغيب لو حته التى يعلن فيها عن موعد الرحيل، أين ومتى سيكون، فلا حيلة لى إذن فى رؤيتك، سامحينى فزيارة القبور وهم وخيال يرضينا بعض الوقت، ثم يتركنا لنمضى خطواتنا كما كتبت علينا، وحتى ألقاك أقول لك إن كل شىء لم يعد كما كان بك ومعك قائما يسير رغم الجمود.

الكون كما هو، لم تلفظ الأرض القبور، ولم تزل نجوم السماء زرق أسنتها، بها كل من على الأرض طعين، السماء والأرض، والجبال والبحار والنجوم بنواميسها تسير، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل فى فلك يسبحون.

حركة الحياة كما هى، وكل الكائنات فى حركة دائمة، وصوت البشير هو صوت النعى، ذلك الصوت الذى نعانى ذات صباح، وكان المساء ولم يغب شىء عن الوجود، أتحسسك فى نور الصباح وظلام الليل، وحين

تتجافى الجنوب عن المضاجع، والدعوات صاعدة إلى الله البر الرحيم، والصلوات فى جوف الليل، ساعة البرد والمطر، وأسمع صدى الريح خارج النوافذ يرجع صوت الدعاء فى الفضاء العريض.

لم تتغير الأسماء، ولا الشخوص رغم الرحيل، وكأنت الأشكال والصور القديمة تبدلت، لتتجدد من جديد، ولتعود لسيرتها الأولى، حتى الأماكن بعلاماتها أقوت لتعود كما كانت فى ثوب نضيد، والعين ترنو للقديم، وإن تبدل وصار جديدا، نامى هادئة، فبقاؤنا لن يطول، وكما جئنا نعود.

(٤٠)

الشارع على امتداده يموج بالنـاس، وأنـا أمـشى بخطـوات وئيـدة، وأخى الأكبر أحمد، يتأبط ذراعى، وساق نحو ساق، وقدم نحـو قـدم، وآلـة حدباء فيها رفات أبى محمول على الأعنـاق، حيث مقامـه الأخـير وحيث يوارى الثرى.

الجنازة مندفعة إلى الأمام، وفى تيار معاكس تعـانق الوجـوه وجوهـا تـسأل عـن الراحـل، وعـن جنـازة مـن هـذه، ويجيـب أخـى الأكـبر عـن التساؤلات، وسنه آنذاك فوق الستين، فشعر بالحرج وهو يعلن للسائل هـذا أبى محمد أفندى، مات، يقول ذلك على استحياء مـن عمـره، وأن للمـوت أجلا لا يخطئه.

وساد الصمت أرجاء الفضاء إلا من وقع الأقدام حتى بـدا المسجد من بعيد، لتؤدى طقوس الجنازة فيه، ثم رفع النعش على الأكتـاف قاصـدين المثوى الأخير، وكان الوداع بكلمات متمتمات، بعضه تفسره الأذن، ويـضيع البعض الآخر كما تضيع الأجساد.

وعـدنا أدراجنـا إلى البيـت، وكـان العـاكفون يـستقبلون العائـدين للعزاء، حتى أرخى الليل سدوله، وأصبح الكون ظلاما يقابل ظلام الأهـل والأصدقاء والأحباب.

كانت أمسية صعبة مجهدة، لم يطل فيها الوقت لأن وجوده قد انعدم، فلا تميز لصبح أو مساء، فما الإصباح من المساء بأمثل.

وتوالت الذكريات تترى، ذكريات الإبن الصغير الذى تأبط ذراعه الأخ الكبير فى جنازة أبيهما وعاد الماضى زاحفا على مخيلة الفتى الحزين الذى أخذ يطرق خاشعا أمام هذا الحدث الجلل، وأحداث الماضى التى طوته أوطواها حتى أصبح يافعا مسئولا عن تبعات الأحداث القادمة، ويظل شريط الماضى فى دورته أمامه حتى يقضى الله أمرا كان مفعولاً.

أسراب من القلوب تسير

تودع قلبا لمثواه الأخير

وسط الزحام طائران يتيهان

يبكيان مع الباكين مسافرا بلا قدم

لا لن يعود

الصمت يقطع وقع الأقدام، نظرات العيون

من بين سائل ومجيب، وحكايات العمر القصير

حتى يبلغ الركب أرض السجود

وتتلى على الراحل صلوات الخلود

وتخرج الأيدى تحمل الفقيد

ويضيع الطائران، ثم يلتقيان

وتمتد المسيرة حتى النهاية

ويستدل ستار على المشهد الأخير

وترى العجاج دخانا ينبعث من بعيد

ويقف الطائران فى نهاية المطاف

وجوه تصافحها وجوه، وهما واجمان

وتهدأ الحركات، وتتوهج الشموس

والأنفس قد زادها العناء عناء فأرادت تستريح

وتتفرق الخطوط إلى غير اتجاه

ويتفرد الطائران فى الفضاء

يعودان إلى عشهما وحيدين

تستقبلهما أمهما فى حنين وشوق

تتساءل فلا مجيب، ويرخى الليل سدوله، ويبزغ فجر جديد

ذات يوم ، ورنين التليفون يملأ أسماع المكان، وتمسك به يد مرتعشة، ويخيم السكون، وتمضي برهة ، ويعود الرنين، ويأتى صوت النعى من بعيد، من يكون ؟ إنه الحبيب كان هنا فى الصباح وعند المغيب، ذكريات تعود مع الصوت المتهدج، وتهدأ الكلمات ثم لاتلبث أن تثور، وكلما هدأت يوقظها الحنين، ماذا فى هذا الصوت وقد رحل الحبيب إلى عالم الخلود، ولا يزال الرنيب بكاء للرحيل.

من كان يدرى أنه سيرحل عنا، سيغيب، صوته يملأ أسماعنا، ويدوى فى كل جانب، كان يحكى لى قصة حياته المليئة بالمخاطر والمفاجآت، كنت أسمع له ويشدنى سماع الحديث كلما أشعل سيجارته.

أذكر له غناءه الشجى، وهو يشدو لحن الجندول، حين ألقى الليل للنور وشاحه، وشكا الطل للرمل جراحه، لقد شكا الليل للسمار آهاته وهو يصل كلماته، يوم أصبح جندياً فى خدمة الوطن، وهو يرتدى الزى العسكرى، العصا فى يمينه وتحت إبطه، والحزام العريض يلم خصره، والحذاء الميرى وعليه القالشين، والبسمة باهتة.

يحلم بشىء لكنه فى صدره، وما علم المغيب، وسطح الدار، ومن فوقه ينظر للأطلال، يغنى، يمرح فى لهو ومجون كأنه فى يوم عرس.

غاب عن الأنظار فجأة، وراح الكل يتساءلون، أين رأح الفارس الجرىء ؟ من كان هنا من قريب، فى كل مكان يبحثون عن الهمام العظيم.

ليتهم علموا أن كل شيء لزوال، وكادوا ينسون ذلك الراهب المتعبد فى المحراب، أين ذلك المحراب؟ لا أحد يعلم أين المحراب؟ قد كان هنا يجوب، يطوف الديار.

ضاع واستراح، فهل يعود؟ من يدرى .. وتوقف الدليل، وسار الزمان على الغريب، قد كان يشدو، فهل تراه مرة أخرى، وتمر السنون وتمضى أحداث السفن، وتشغل الهموم أفكار السائحين، وفجأة يعود الغريب.

يعود كالغريب فى يد أخيه إلى أمه وأبيه، الأخوة يرقبون مقدمه من بعيد، وكأنه مولد جديد، الأم صابرة فى البعد والقرب، وحين اللقاء، لم تدهش لما ترى، فقد عركتها السنون ، والصغير ذلك الأخ الغض لم يعرف الحقيقة، يسأل عنها، الصورة ترتسم فى خاطره.

سمع الصوت فما درى من يكون. ورآه وقد حمل يده على كفه وهو جريح، ماذا يكون من أمر ذلك المعذب.

وصعد السلم يئن من نزف خطير، واستلقى على الأرض، لا أدرى ماذا جرى، أحسبه ضيفاً، وما لبث أن تتبين الحقيقة، إنه أخوه الذى أرغم على الفراق لحب دفين، وعاد ليكمل المشوار.

وانتهينا من مجلسنا وافترقنا على لقاء، كان الصباح، إنه النور ألف العقد المتين، زوج وبنون وحفدة، يأتينى كل عام حين أعود لأرضى وبيتى، لم يفارقنى فى القرب أو البعد لأنه الحبيب.

وفى جلساتنا والليل يجمعنا، ومعنا ضيف عزيز، كان يحدثه عن أيامه

وافترقنا، واستمرت الأيام فى سيرها كما هى، إلى أن جاءنى كعادتـه يـضمنى إلى صدره، ضربات قلبه هـذه المـرة لهـا صـوت مـسموع ليـست كطبيعتهـا شاحب الوجه، هزيل الجسم، لاتكاد ساقاه تحملانه، فيجلس حيـث يكـون وصاحبته حتى قالوا إنه على الفراش عليل وهرعت إليه أسـأله مـا شـكواك ياحبيب؟

لم يبين، وكانت نظراته موجهة تجاه السماء، تجاه البر الـرحيم، حيـث هو فى كل مكان، ويرجوه الناس فى كل وقت وحين.

لطف الله به حيث كان وحيث يكون، ومررت باختبار، وعلمت أنه فارق الأحبة والأهل والولدان.

لم أشهد مشهده، ولم أودعه فى الختام، كان يرجـو أن يرانـى، وكنـت كذلك أرجوه، وأصبح فى لحده، ولا أزال أنتظر زيارة هذا اللحد فكل شىء هالك إلا وجهه سبحانه وتعالى ومات الخيل

(٤٢)

تنفس الليل عن صبح جديد، كل شىء يبدأ مع الصباح الجديد، حارس ينظف سيارة، ورجلاً يحمل خبزا فوق رأسه، وأحدب أمام العمارة، وسائق يدير حافلة، وأطفال يحملون حقائبهم إلى المدارس، منهم من تنقلهم السيارات، ومنهم من يمشى على رجيله، وبائع الفول يتزاحم عليه الصبية والرجال، والدكاكين تفتح أبوابها المغلقة، اللبان، والبقال، وبائع الصحف، والمخابز، وكل شىء فى حركة مع مطلع اليوم، وأنا حائر وسط هذا الخضم الرهيب.

وقفت انتظر الحافلة التى تقلنى إلى حيث أريد، ولاهدف أمامى سوى التنقل كما يتنقل الآخرون، ولكن إلى عالم آخر حيث الصمت والهدوء، وجاءت الحافلة التى انتظرتها لم يكن بها سائق أو رقيب، صعدت إليها، لا أحد فى المواجهة .. كل المقاعد خالية.

تركت مكانى ونزلت إلى الشارع ، أنظر من بعيد، إنه كغير الشارع الذى تركته، البيوتات خاوية، النوافذ مغلقة، الأيك والأشجار بلا أغاريد، أين شرطى المرور، ومواكب السيارات ومواكب الأطفال وهم يمرحون ويركضون؟

أين المتسولون، وأين الكلاب والقطط السمان؟

أين بائع الزهور، وهل ذوت الورود، وأصبحت بلا أمواه فى زجاج كثيف؟

أين الشعر والشعراء والأدباء الذين تركتهم فى الشارع الخلفى؟ هل صاروا وراء القضبان؟

أين من كان فى هذا المكان، وأين أصحاب الجاه والسلطان؟ كلهم رحلوا.

فضاء عريض بلا ضوضاء، أو تلوث، أو صراع من أجل البقاء..

إنها مدينة بلا جدران، فى عالم بلا أصوات، تلك حياة بعد موات..

إن الموت يجذب أذنى ويقول : عش فإن قادم..

ترى من تكون له المقاليد والملك، والأمر والنهى فى حياة استخلف الله فيها الإنسان ليكون خليفته فى الأرض وليعلى كلمته ويوصى بالحق ويوصى بالصبر، وينشر العدل.

إنه يؤتى الملك من يشاء، ويهب القوة لمن يشاء، قوة مادية تعينهم على الاستمرار فى هذا الملك الذى ساقه الله إليهم، إليهم جميعا حتى أصبح لهم قلوب غلف، ختم الله عليها، واستطاعوا أن يقوا أنفسهم من كل ضائقة أو عسر أو شدة، لايعرف المرض طريقا إليهم لأنهم حصنوا أنفسهم ضده مما أتاهم الله من نعمة، فأصبح كل شىء مسخرا لهم، يسخرونه كما يشاءون لما يشاءون فيركبون سفينة النجاة من كل شر، ولا يأبهون من أمواج عاتية، مهما بلغت قوتها، فلهم من الإمكانات ما يجعلهم يقتحمون كل موج، هؤلاء فى عالم النسيان يعيشون وقدرهم أنهم حفوا بالعصمة، عصمة القوة، وشيدوا بالتأييد تأييد المنافقين، فلا تجد فيهم شاكيا أو باكياً أو محروما أو مظلوماً ، بل ظالما وعاتيا ومتجبرا، ليس لهم إلى الله طريق، إلا الزهو بقدرتهم على كل مايصادفهم فى حياتهم، ويظنون أنهم يحسنون صنعا.

وفى المقابل ترى المخبتين، الراكعين الساجدين، المتبتلين العارفين بالله، والموحدين به فى حيرة من أمرهم، أتكون البشرى للعاتين، وهم عن ربهم معرضون؟ نعم إنها بشرى العذاب المبين، وكفى الصالحين قوة الإيمان التى تبشرهم بالفوز العظيم.

نعم يلاقون من الضيم ما يفت العضد، ويمسسهم العذاب فى الأرض بكل أنواعه، جور وظلم وعنت، ويسلمهم إلى الأمراض، نفسية كانت أو جسدية، لاحول ولاقوة أمام هذه التحديات، وليس يملكون سوى التضرع إلى من قسم معيشتهم بأن يقف معهم، ويشد أزرهم، وأن يرحمهم رحمة واسعة، تشملهم جميعاً، فيرون ويسمعون ما يراه غيرهم وما يسمعه الآخرون.

أنها الدنيا، نشأت على المقابلة، وعلى التضاد، فإذا كان فى الحياة مطمع، ففى الموت غاية أسمى من ذلك وأبقى، والفناء ضد البقاء، كما أن القبح ضده الحسن، ومنهما يكتمل البناء، فالفراش الذى يحمل مريضاً هو ذاك الذى يفترشه الصحيح، وعلى ذلك فالفراش كل متكامل وعليه يكون الفناء والبقاء.

لاتقل قسمة ضيزى، بل قل فريق فى السعير، وفريق فى الجنة أفى ذلك جور على فئة دون أخرى؟ الجنة بمعناها الرمزى وكذلك السعير، لا وربى ما هنالك جور، ولا ظلم ، بل عدل وعدالة، فالجور أن يعطى المرء مقاليد غيره، فلا يحسن أمرها، ولا غرابة فى أن الفئة الأولى التى ذهبت فامتلكت وعثت، يرى فيها السائحون كل عين حميدة، والعيب فيها كل العيب، وأن ترى ذاتها متخبطة فى بحر لجى، يصارعهم فيه موج من فوق موج، من فوقه ركام، فما عسى الإنسان أن يفعل أمام هذا التحدى المصيرى؟ أيصبر والله المستعان، أم يشكو ولمن تكون شكواه؟

لقد أجابوا داعى الله وسجدوا وركعوا مع الراكعين، تحفهم القوة — قوة الإيمان — يواجهون بها القوى المادية وعلى السطح فقاعات المادة تطفو عليها مظاهر أجسامهم، وبنيانهم الذي بنوا، وأموالهم وأبناؤهم وأحسابهم وأنسابهم وشيعتهم، وكل ما امتد إليه ظلمهم، ويحسبون أنهم مانعتهم حصونهم من الله، وما هم بفارين من يد الرحمن.

والبشرى لمن أوذى فصبر، ومن ظُلم فدعا، ومن أصيب فى بدنه وفى ماله وولده، وفى رزقه وأرضه، البشرى بمعناها القريب وليس البعيد، فما هى إلا أزمنة وسيأتى زمان يكون فيه الإنسان ماردا كما كان من قبل، ماردا فى المعاصى، وماردا فى الفساد، والله من وراء هذا محيط وستكون الدائرة عليهم، حتى يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه.

دوت القاعة بالتصفيق الملتهب لمدة طالت حتى خيل للحضور أنها لن تنتهى، بين الحضور أدباء ومفكرون ونقاد ومصورون، ورجال إذاعة وتلفزيون، ولم تخل القاعة من النساء الحسان، والفتيات الجميلات، فصاحبة الدعوة امرأة من أجل ذلك جئن لتشجيعها ومشاركتها الندوة التى أقيمت لمناقشة رواية (السقوط فى دوائر الانتظار) لكاتبتها الفاتنة، ذات الثراء العظيم، وإحدى نساء الإصلاح والمجتمعات النسائية وحقوق المرأة، وتسابق كبار الأساتذة، ورجال الجامعة على شرف استعراض الرواية، وتهيأ المسرح، وأضيئت الأنوار، وعزفت الموسيقى، وأسدلت الستائر استعدادا لاستقبال البطل، وما هى إلا دقائق حتى تناول السادة أساتذة الجامعة الرواية وجعلوا منها الرواية التى جمعت كل المقومات الفنية واشتملت على العناصر الثابتة لنجاح الرواية، وقارنوا بينها وبين روايات نجيب محفوظ صاحب جائزة نوبل، وبالأخص فى ثلاثيته التى شبهوها بها، الكل يتبارى فى عرض مبرارته وأسانيده التى من شأنها إعلاء صاحبة ومؤلفة هذه الرواية، وخلال المناقشة كان يسود صمت أحيانا يتخلله تعليق بعض المستمعين، منهم من يهمس لصاحبه بأن العمل لايستحق كل هذه الإطراءات، ومنهم من يتجرأ بالقول الحق ، وأنها ليست برواية ولا قصة، إنما هى خواطر جمعت فى عدد من الصفحات وصدر لها شيخ الأساتذة والأدباء والمفكرين بحيث جعل منها أسطورة الزمان الحالى ولكن الحقيقة التى كانت فى داخل كل من كان غيورا على الأدب واللغة والفن هى أن

أصحاب المال الذين يغدقون هدايا هم على من يبيعون أفكارهم هـم الـذين تنحنى لهم الجباة ويقـف الجميـع أمـام محـرابهم خاشـعين، ويـصبح القبـيح مرتديا ثوبا قشيبا لا يدانيه ثوب.

إنها القضية التـى بـدأت مـع الخلـق حيـث كـان الإنـسان بتكوينـه السرمدى ولن تتغير الأحكام مهـما تعالـت الأصـوات، وبحـت الحنـاجر، وأشهر العالم أسلحته فى وجوه الطغاة.

إنها النفوس التى تعرض نفسها للبيع، فيصبح الغث ثمينـا وتنقلـب الموازين، وتضيع الحقيقة، ولا يبقى سوى صـدى نرجـع فيـه حكاياتنـا مـع الزمان، ولا يكون إلا ما كان.

وهكذا نالت الرواية الجـائزة، وصـافح الحـاضرون البطـل، وأثنـوا عليه، وأشادوا بالعمل، وخرج الجميع يتنفـسون ريـح الانتـصار المـصنوع، وما دروا أنهم أسقطوها فى دوائر الانتظار.

ولا يزال الحديث مستمرا حـول أصـحاب الأعـمال الـذين ينـالون عليها الجوائز، وهم أسماء معروفة لا تتبدل ولا تتغير، ويبقى الآخرون عـلى هامش الحياة وإن كانوا هم الذين يستحقون مثل هذه الجوائز.

عرفته حين جاء يسألنى إن كنت أقبله، وكان القبول والترحاب، واطمأن لمكانة الجديد وهو مبتسم وضاح الجبين، السمة التى تميز شخصيته منذ أول لقاء، وصرنا مع الصباح والمساء نلتقى، فى الصباح حيث طبيعة العمل الإعلامى، وفى المساء حيث الندوات والمؤتمرات الثقافية والفنية والأدبية، كان ساخرا من كل ماحوله ، ليس ككل البشر، لا يعبأ بقليل أو كثير، الأمور عنده سواء، لا يلقاك إلا متهللا، وينقلك بحديثه إلى عالم أبى العلا المعرى أو المتنبى أو غيرهما من شعراء العصر العباسى، أو العصر الجاهلى أو العصر الحديث.

وقد كان شاعرا يطوف بشعره حول الماضى، وهو يذكر مسيرته مع كامل الشناوى، وصلاح جاهين، وأحمد رامى، ويعرج على أساتذته ممن كان يصطفيهم أمثال مهدى علام، والأهوانى، ويشيد بصداقته لبعض شعراء العصر الذين سمحت لهم الظروف أن تنشر قصائدهم فى وسائل الاعلام المقروءة والمسموعة، وهكذا يسمعك من القص القديم، والملح والطرائف ما يشجيك ويمتعك، ويسعد أوقاتك، لم تفته صلاة فى وقتها فهو يحافظ على الصلوات، ويتلو بعض سور القرآن الكريم للتقرب وطلب اللطف من الله، وفك الكربات والضيق، وكان حريصاً على زيارة أولياء الله الصالحين، يعرفك بأنسابهم، ويحيى لياليهم، ويشارك فى الموالد، وله طاقم من المريدين الذين يتخذونه إماما لهم فى إقامة الحضرة الإلهية بعد صلاة الجمعة، كانوا ينحنون له ويقبلون يده، ويحملون له حذاءه، ويمشون خلفه طائعين راجين

صالح الدعاء.

كنت لا أفارقه إلا قليلا صورة وجهه الصبوح، وجبينه الناصع، ولحيته القصيرة البيضاء، وعصاته التى يتوكأ عليها وخطواته الوئيدة، ورائحته الذكية، تتركز أمامى جيئة وذهابا، أينما حللت أو نزلت وكنت ألبى كلما دعانى، ونبدأ اللقاء فى مكان تحت الشجرة وتسيرنا الأقدار إلى حيث يشاء لنا الله.

وعلى غير انتظار التقينا بالقرب من مسجد يسمى مسجد العلم والإيمان، وكان الوقت ظهرا وصلينا الفريضة وتوجهنا إلى بيته الذى لايبعد عن المسجد قليلا، وودعته وانطلقت إلى منزلى وأسمع جرس التليفون وأجيب فإذا بصوت ينبئنى بأن الشيخ مات.

مات الشيخ الذى جاء من مجهول، وصار إلى مجهول، لقد كان يقضى جل وقته فى رحاب أولياء الله ، لايبغى من وراء ذلك سوى هدوء البال والسريرة، والنفس المطمئنة، قطع المسافات وضرب فى الأرض متنقلا من مكان لآخر سعيا لتحقيق رغبة فى الكشف عن حقيقه يبحث عنها، حقيقة الوجود، ومن ثم حقيقة الخلود، ولا يأسى على ما فاته، ولا يفرح بما آتاه، راض كل الرضا، عاكف على ما يجود به الحال سواء فى قليل أو كثير.

كل ما يملأ وجدانه أن تذكره بأصحاب القلم، ومن كان يلتقى بهم فى أمسيات العلم والشعر، منهم من حقق مجدا، ومنهم من كان حظه قليلا، كان يغمض عينه ثم يكتب ما كان يساوره وهو طفل صغير عندما ضربه سيده وهو فى الكتاب لأنه لم يسابق زملاءه فى حفظ القرآن الكريم، وحين

أساؤا إليه وهو يصحح ما يخطىء فيه المدرسون حين أصبح فى دور العلم، وأخيراً انتهى المشوار.

ما أصعب فراق الأحباب فى مشوار هـذه الـدنيا، ورحيـل الرفـاق، رفاق الدرب والطريق والمشوار، نجيء ثم نغدو، ولا نعرف كيف جئنا، ولا إلى أين يكون اللقاء الأخير؟ كم التقينا بموعد وبلا موعـد، لكـن أن يكـون الفراق بلا موعد، وبلا لقاء فهذا هو الصراع.

رحل صاحبى وصديقى، رفيق دربى وطريقى، شيخى العزيز يفـرد شراعه ويبحر فى يم بلا عودة، أفرد شراعه، وأبحر فى يم بلا شطآن.

لقدشاءت الأقدار أن يكون الـشيخ رفيقـى آخـر العمـر، شـاركنى عملى الأدبى والفكرى، كنا دائـما معـا لانفترق،رفيـق قلـم وألم، كـان كمـن ينحت فى صخر، وكنـت كمـن يغـرف مـن بحـر، واخترنـا طريـق الكلمـة والشعر والفن، لم يكن لنا مكان إلا الكتب والمراجع والنـدوات والمـؤتمرات الثقافية والعلمية، نحمل معا راية النقد، ونعلو بها فوق كل الرايات.

كان صاحبى وصديقى الراحل صاحب خلق ومبدأ ، كريم الخطى ، هادىء الصوت، واثـق الخطـوة، يمـشى مـشية الـصالحين، النبـل سـلاحة والتواضع شيمته، ولا تملك إذا رافقته أو حتى قابلته ولو مـرة واحـدة – إلا أن تنحنى لـه احترامـا وإعجابـاً، لكـن الأيـام تتـساقط كـما تتـساقط أوراق الشجر، لم يعرف المرض إليه سبيلا، ولم يرقد فى سريـر، ينتقـل كفراشـة بـين موائد المدعوين إلى الداعى وإلى الحضرة الإلهيـة، تلقـاه مرحـا فكهـا، لطيفـا ظريفا بشوشا.

عمر السعادة فى دنيانا قصير .. قصير .. قصير . ولم يكن شيخى الراحل مجرد رفيق فكر وأدب وألم ومشوار طريق، ولكنه كان مثالا لكل صديق صدوق، لم يخن ولم يكذب ، هكذا كان عندما تزاملنا فى الإعلام.

وفى مشوارنا القصير فى العمل، كان صلب العود، رغم مظهره الرقيق، لايميل عن الحق، ولايلين أمام سطوة المسئولين ورغباتهم.

عشت معه فى هذه الفترة - سنوات العمر القصير - أكثر مما عشت مع أهلى وأولادى، فكم جمعتنا اللقاءات المختلفة فى رحاب اللغة والأدب.

حقيقة لا مراء فيها، وحق مؤكد فى هذا العالم - الموت - فنحن نأتى إلى الدنيا نشقى ونتعب، ونملؤها صراخا وصراعاً، ونشبع فيها مرحا وفرحا، حتى تكون الساعة التى وعدنا بها، لا تأخير فيها ولا تقديم، وإذا الدنيا كما نعرفها، وإذا الأحباب كل فى طريق.

رحل صديقى الشيخ بعد أن فارقته إلى محطة أخرى ، رحل إلى مثواه الأخير، رحل ولم يقل حتى وداعا .. ذكراه فى سمعي وفى خاطرى. ألم الفراق يعتادنى حينا فحينا ، تعيش نفسى بذكراه، لاتفارقنى صورته وفى ذلك عزاء لى ليل نهار، وبصماته لاتزال فى كل مكان، ولا أزال على نهجه أسير، بعد أن تعلمت منه الكثير من دروس العطاء والنيل والشرف والخلق القويم والصلاح فى كل الأمور سلام عليك ياصديقى حتى ألقاك.

كلمات

- القلب: هو العقل فى القرآن، ويعبر عنه فى قوله تعالى﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ (الاعراف ١٧٩)
- ويذكر مع القلب والسمع والبصر، ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ (الجاثية ٢٣)
- أما الفؤاد: فهو القلب ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ (الإسراء)، السمع والبصر مقترن بالفؤاد.
- إن المشيب رداء العقل والأدب كما الشباب رداء اللهو والطرب.
- قبل الرماء تملأ الكنائن.
- أثقل الدلاء أملؤها.
- إذا ظهر نور الله فأطفئوا مصابيحكم.
- آفة الرأى الهوى
- الإبهام عين البيان
- الضعف فى المال ، ضعف فى العيون التى تراك
- الضعف فى القوة ، ضعف فى النفوس من حولك
- الضعف فى الجوارح، قوة فى حسادك
- الضعف فى المال، قوة لمن كان يشتكى.

- الضعف فى القوة، قوة لأعداء الناجحين
- قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه أينما كان الماء كان المال، وأينما كان المال كانت الفتنة.
- **أساطير البيان أربعة:**

شاعر ساربيته

ورسام نطق زيته

ومصور ضحك حجره

وموسيقار بكى وتره

كتب للمؤلف

- كتاب النقد والبلاغة للمرحلة الثانوية بتكليف من وزارة التربية والتعليم بالكويت ١٩٦٩م.
- كتاب التربية الإسلامية للمرحلة الثانوية بتكليف من وزارة التربية والتعليم بالكويت ١٩٧٥م.
- الصورة الفنية عند التابغة: الشركة المصرية العالمية – لونجمان ١٩٩٢م.
- تطور الصور فى الشعر الجاهلى: مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع بالإسكندرية ٢٠٠١م.
- التعليم المعاصر (قضاياه الفنية والتربوية) مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع بالقاهرةم.
- مشاهد أبكتنى: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية ٢٠٠٢م.
- اللغة العربية: دار طيبة للنشر والتوزيع – القاهرة ٢٠٠٢م.
- الجودة الشاملة فى التعليم وأسواق العمل فى الوطن العربى: مجموعة النيل العربية ٢٠٠٣م.
- البطالة (المشكلة والحل): مجموعة النيل العربية – القاهرة ٢٠٠٣م.

- الماء (الذهب الأزرق) فى الوطن العربى: مجموعة النيل العربية – القاهرة ٢٠٠٤م.
- سماحة الأديان والسلام العالمى: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر – الاسكندرية ٢٠٠٤ م.
- اكساب وتنمية اللغة: مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع بالإسكندرية ٢٠٠٥ م.
- الشباب والفراغ .. ومستقبل البحث العلمى: مؤسسة حورس– الإسكندرية ٢٠٠٧ م.
- قصص الحيوان فى القرآن : مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع بالاسكندرية ٢٠٠٨ م.
- الإسلام فى القرن الحادى والعشرين: مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع– القاهرة ٢٠٠٩ م.
- من روائع فاروق شوشة: بنك المعلومات العربى – القاهرة ٢٠٠٩
- من أسرار القرآن الكريم للدكتور سعد زغلول النجار: بنك المعلومات العربى القاهرة ٢٠٠٩ م.
- الحوارات الإلهية: مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع – الإسكندرية ٢٠١٠ م.

❖ الموقع على النـــت :

www.askzad.com

❖ كتب تحت الطبـــع:

♣ مكارم الأخلاق فى الشعر الجاهلى

جائزة قائد (وجوه من الشرق)

الكويت .. بيت الشعب

المؤلف في سطور

¤¤¤¤¤¤¤¤¤¤¤¤¤¤¤¤

د. خالد محمد الزواوي

- دكتوراه في الأدب العربي من كلية الآداب جامعة عين شمس بمرتبة الشرف الأولى.
- ماجستير في الأدب العربي من كلية الآداب جامعة الأسكندرية بتقدير ممتاز
- ليسانس في اللغة العربية وآدابها من كلية الآداب جامعة القاهرة.
- الدبلوم العامة في التربية من كلية التربية جامعة الكويت
- الدبلوم الخاصة في التربية من كلية التربية جامعة عين شمس.
- تركز الإنتاج الفكري في الدراسات الأدبية من مدرسة الرواد الكبار أمثال:
- الاستاذ الدكتور طه حسين ، شوقي ضيف، سهير القلماوي ، يوسف خليف، شكري عياد، محمد زكي العشماوي، إبراهيم عبد الرحمن، محمد عبد المطلب.

الجوائز وشهادات التقدير:

- وسام عيد العلم: قاعة المؤتمرات الكبرى بالقاهرة ١٩٩٧
- جائزة المستشار الدكتور محمد شوقي الفنجري، في خدمة الدعوة والفقة الإسلامي - هيئة قضايا الدولة – النادي النهري بالزمالك ٢٠٠٢م.
- جائزة وزارة الشئون الإجتماعية في مجال الأدب – نادي المقاولون العرب النهري – القاهرة – اكتوبر ٢٠٠٣م.

- جائزة نادى الأهرام للكتاب عن فوز كتاب (البطالة) بالمبنى ٢٠٠٤م.
- جائزة نادى الأهـرام للكتـاب عـن فـوز كتـاب (اكـساب وتـنميـة اللغـة) ٢٠٠٦م.

⚘عضوية اللجان:

- عضو اتحاد كتاب مصر
- عصو نادى الأهرام للكتاب
- عضو هيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية
- عضو الجمعية التشريعية المصرية للبيئة
- عضو مركز الإسكندرية للإبداع

⚘العنوان/

بولكلى – أمام ١٩ شارع أبو هيف ، شقة ٣ الإسكندرية

Email: Elzawawykhaled@hotmail.com

⚘تليفون/

منـــــزل: ٥٤٦٣٤١٩ / ٠٣

محمـــول: ٠١٢٢٧٣٨٠٤٤